الصورة الكنائية
في عُمرية حافظ إبراهيم
دراسة تحليلية

الدكتور
الدسوقي محمد أبو غرارة
المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين) بدسوق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على نعمة الإسلام، وتشريفه لنا بالقرآن، وامتنانه علينا بنعمة البيان تحقيقا لقوله – جل في علاه – ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١)، وأصلي وأسلم على من مدت عليه الفصاحة رواقها، وشدت عليه البلاغة نطاقها، أرسله ربه مبشرا ونذيرا، وداعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا، فكان أفصح رسول، وأبلغ مبلغ، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

?بعـــــد،،،

فالشعر هو المنهل العذب الذي ينهل منه عشاق العربية، تلك اللغة ذات الإمكانات الفريدة في ترجمة الخواطر والأفكار وإماطة اللثام عن دقائق المعاني، كما عناها أصحابها، وخير ما يعين على دراسة الشعر الحس المرهف والذوق المتمرس، والنظر المتثبت في النص الشعري وصولاً إلى تحليل تراكيبه، وإبراز محاسن صياغته، ودلالات خصوصياته.

ولا شك أن الشاعر يشعر بما لا يشعر به غيره، ونقله للوقائع والأحداث يختلف في تأثيره عن غيره من كتاب الرواية والقصة والمسرح وغير ذلك من الفنون الأدبية، وذلك نظرا لما تتمتع به لغة الشعر من نبض حي جعله يتفوق في تأثيره وبيانه عن لغة غيره.

---

(١) سو??لرحمن ،?لآيا ? : ١ – ٤ .

وإذا كانت لغة النثر قد استفاضت في بيانها مجسدة لمناقب فاروق الأمة ومصورة لمواقفه ومآثره، فكان للغة الشعر – أيضاً – نصيبها الأسمى في تصوير مآثر هذا الصحابي الجليل، وخير ما يمثل ذلك من عيون الشعر الحديث، تلكم القصيدة العمرية لشاعر النيل حافظ إبراهيم، حيث استطاع ببراعته الفنية ولغته الرائقة أن يجسد في تلك الملحمة الرائعة سيرة هذا الصحابي الجليل والخليفة الثاني لرسول الله، كاشفا عن أخلاقه ومواقفه العظيمة في نصرة الدعوة ورفع لواء رايتها وخصاله المجيدة من الشجاعة والزهد والورع والحرص على مصلحة الرعية، وإقامة دولة العدل ومحاربته للظلم والاستبداد، مشيدا بكل هذه الخصال وداعيا إلى السير على نهجها واقتفاء أثرها.

ومن هنا كان لتلك القصيدة العمرية وقع كبير في نفسي وصدي قوي في قلبي، وقد شدني ذلك إلى التفكير في دراسة صور البيان فيها، ولكن نظرا لطولها حيث بلغ عدد أبياتها مائة وسبعة وثمانين بيتا، وكذلك نظرا لظروف النشر والتي لا تسمح إلا بعدد معين من الصفحات، لما يتطلبه ذلك من كلفة مادية، وتلك طامة كبرى ابتليت بها جامعاتنا، ولذا آثرت أن أقتصر على لونٍ بلاغي كان له دوره البارز في تجسيد مناقب هذا الصحابي الجليل وتصوير مآثره في تلك العمرية، وبعد وقفة متأنية مع النفس وقع قلبي على اختيار فن الكناية من بين صور البيان، ولعل الذي دعاني إلى اختيار هذا اللون التصويري أنني – بعد قراءتي للقصيدة عدة مرات – وجدت أن حافظاً رحمه الله – لم تقف غايته في تجسيد مناقب ومآثر هذا الصحابي الجليل عند مجرد الإخبار بها أو تعدادها، ولكنه كان دائما ما يعبر عنها من خلال الأدلة والبراهين الكاشفة عنها، وهو في هذا الصنيع من الذكاء بمكان ؛ لأن مناقب الفاروق كلها معروفة، ولكن البراعة

الفنية تكمن في نسجها في لغة شعرية تحقق الإقناع والتأثير والتقرير، وخير ما يكشف عن ذلك ويبرزه هو التصوير الكنائي.

وبعد تفكير عميق في خطة هذا البحث وجدت أن المنهج الأمثل الذي يتناسب مع تلك الدراسة، هو أن أسير في استقصاء شواهد هذا اللون البلاغي في تلك العمرية حسب المواقف التي ذكرها الشاعر في قصيدته، فجعلت من تلك المواقف عناوين مناسبة لمقصد الشاعر ومضمون ما يصوره، ومن ثمَّ قسمت المطولة إلى إحدى وعشرين مقطعا، يسبقها مقدمة، وتمهيد، ويلحقها خاتمة أبرزت فيها أهم نتائج البحث، وأخيرا ثبت المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات، وكان ذلك على النحو التالي :

١- **?لمقدمة** : وبينت فيها منهج البحث وخطته وسبب الدراسة.

٢- **?لتمهيد** : وقد تناولت فيه أمرين :

?لأ?? : نهض بترجمة موجزة للشاعر، وجعلت عنوان ذلك (حافظ إبراهيم في سطور).

??لآخر : اشتمل على وقفة يسيرة حول الكناية : مفهومها وبلاغتها.

٣- ذكر نص القصيدة كاملا، ثم تقسيمها إلى عدة مقطوعات، كل مقطوعة تحمل عنوانا مناسبا.

٤- ثم جاءت الخاتمة، تحمل أبرز ما تميزت به الصورة الكنائية في القصيدة.

٥- ثم أنهيت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

وتجدر الإشارة إلى أنني في دراستي للصورة الكنائية في تلك العمرية لم أقف عليها وحدها، بل كنت دائما أحاول الوصول إلى خصائص النظم داخل الصورة الكنائية، بما

يعضد المعنى الكنائي الذي يقصده الشاعر ويرمي إليه، كما حاولت الوصول إلى علاقة الكناية بالسياق الذي وردت فيه وكيف تكاتفت معه في إبراز المعنى المراد، فليس ثمة شك " في أن العلاقة بين المعنى الكنائي ونظرية النظم هي علاقة وطيدة، وذلك على اعتبار أن المعنى المكني به هو أحد مفردات الجملة النظمية، ومن ثم فهو لا يكتسب دلالته إلا عن طريق التركيب ؛ لأن الألفاظ المفردة لا توصف بحقيقة ولا مجاز وبالتالي فإن المعنى الكنائي هو رهن في وجوده لتلك البنية النظمية، وذلك على اعتبار أن تلك البنية النظمية هي التي تحدد معاني تلك المفردات " [1].

(١) مفهو??لمعنى?لكنائي في فكر?لإما? عبد?لقاهر?لجرجاني ، ? / علي سعد على سعد ، ص : ١١٤٢ ، بحث منشو? في حولية كلية ?لد??سا ??لإسلامية ??لعربية بنين ، بدسو? ،?لعد??لثالث ، ٢٠٠٠ ? .

التمهيد :

??لا : حــافظ?بــر?هيم فــي

لا شك أن طبيعة البحث البلاغي – وبخاصة في مثل هذه البحوث التي تنشر في الحوليات العلمية – مما يقتضي الإيجاز في هذا الجانب الذي يتعلق بتعريف الشاعر بما يؤدي الغرض ويوفي المراد، وذلك لأن الإطناب في مثل هذه الدراسات من طبيعة البحوث الأدبية، ولذا سوف أقتصر في هذا الجانب على عدة سطور تبرز مولد شاعرنا ونشأته، وتعليمه وثقافته، وموهبته الشعرية ووفاته [1].

?ما عن ميلا?? ?نشأته : فقد ولد شاعرنا سنة ١٨٧٢ م، من أب مصري وأم من أسرة تركية، كان أبوه إبراهيم أفندي فهمي مهندسا يشرف على قناطر ديروط، حيث ولد حافظ، وتوفى وحافظ في الرابعة من عمره، فكفله خاله محمد أفندي نيازي، وعاش في كنفه عيشة الطبقات المتوسطة التي كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار، فأحس

(١)?ستفد ? ?لـك من مقدمة ?يو?نه ، ينظر?ليها : صـ ١٨ – ٤١ ، ضبطه ?شرحه ?صححه ??تبه :?حمد?مين ، ??خر?? ، ? ٣ ،?لهيئة?لمصرية?لعامة للكتا ? ١٩٨٧ ? ، ?ينظر : شعر???لوطنية في مصر ، لعبد?لرحمن?لر?فعي : صـ ٩٥ – ٩٧ ، ? ٣ – ???لمعا? ? ، ?ينظر : شعر?? مصر ?بيئاتهم في?لجيل?لماضي ، بقلم : عبا ? محمو??لعقا? : ١٢ – ١٥ ، ? ٣ – مكتبة?لنهضة?لمصرية – ١٩٦٥ ? ، ?ينظر :?لأ? ??لعربي?لمعاصر في مصر : ١٠٠ – ١٠٥ ، ? / شوقي ضيف، ? ١ ، ?? ?لمعا? ? .

حافظ منذ صباه بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات.

?ما عن ???سته : فقد تلقى شاعرنا التعليم الابتدائي، وجزءاً من التعليم الثانوي، ولكنه لم يتمه، وانتقل مع خاله إلى طنطا، وكان مهندس تنظيم بها، وانقطع حافظ وقتا ما عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر.

اشتغل وقتا وجيزا بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها، إذ لم يجد من نفسه ميلا إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل، وهو لم يكن يميل إلى التقييد بمثل هذا الدأب، بل كان كالطير ينطلق مغردا بين مختلف الأشجار والأغصان.

نظراً لتأثر شاعرنا بالبارودي رائد مدرسة الإحياء والبعث أراد أن يقلده، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، كما أنه وجد في الحياة العسكرية ما يثير في نفسه روح الشعر والخيال، وتخرج منها سنة (١٨٩١ م) ضابطاً برتبة ملازم ثان، وكان إذ ذاك في سن العشرين تقريبا.

?ما عن ثقافته : فالقارئ لشعر حافظ يدرك أنه نتاج الأدب العربي والثقافة العربية، فقد أكثر من قراءة كتب الأدب وأطال النظر فيها، خاصة كتاب الأغاني، كما أطال النظر في دواوين الشعراء من أمثال بشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، والشريف الرضي وغيرهم.

ومن أهم المصادر التي شكلت ثقافته كثرة غشيانه لمجالس العلماء وقادة الرأي في الأمة، فقد اتصل بالأستاذ / محمد عبده، وعدَّ نفسه فتاه، وكان يحضر بعض دروسه التي يلقيها على نخبة من الفضلاء في منزله بعين شمس، ويجلس في مجالسه، ويصحبه في أسفاره، كما كان يغشى مجالس أمثال سعد زغلول، وقاسم أمين، ومصطفى كامل، ونحوهم، وكانت مجالسهم مدارس من أرقى المدارس، تطرح فيها المسائل العلمية والمعضلات السياسية، والمشكلات الاجتماعية، وتُعرض فيها الحلول المختلفة، وتبسط فيها أدواء الأمم.

وحافظ وإن كانت ثقافته شرقية إلا أنه تعلم الفرنسية على كبر، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه وساعده ذكاؤه وألمعيته على محاكاة الشعر الغربي أحيانا.

?ما عن موهبته ?لشعرية : فقد كان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو في السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها عن معلم أو أديب ولا تعلمها في المدارس التي انتظم بها، بل كانت وحي الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم في جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية، وساعدته على تحقيق رغبته، وبذَّ مع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب.

نجح حافظ في أن يرتفع بشعره في كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعاني والأفكار والأساليب الحديثة، فزاد شعره طلاوة ورنينا موسيقيا حبَّبَاه إلى النفوس، وجعلا بعض قصائده أشبه بالأغاني والتغاريد.

ويمتاز حافظ في شعره بقوة البلاغة وإشراقة الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية، ولقد أنصفه شوقي في رثائه فقال :

يا حافِظَ الفُصحى وَحارِسَ مَجدِها ... وَإِمامَ مَن نَجَلَت مِنَ البُلَغاءِ
ما زِلتَ تَهتِفُ بِالقَديمِ وَفَضلِهِ ... حَتّى حَمَيتَ أَمانَةَ القُدَماءِ
خَلَّفتَ في الدُنيا بَياناً خالِداً ... وَتَرَكتَ أَجيالاً مِنَ الأَبناءِ
وَغَداً سَيَذكُرُكَ الزَمانُ وَلَم يَزَل ... لِلدَهرِ إِنصافٌ وَحُسنُ جَزاءِ[1]

?ما عن ?فاته : فقد توفي يوم ٢١ يولية سنة ١٩٣٢ م ورحم الله حافظ، فقد كان شاعر عصره وشاعر أمته، وشاعر عروبته، وشاعر شرقيته، بل شاعر عالمه الإسلامي في ذلك الحين.

(١) ?لأبيا ? في ?لشوقيا ? لأمير ?لشعر?? : ?حمد شوقي : ٣ / ٢٤ – ٢٥ – ?لم كـتبة ?لتجا?ية ?لـكـبر ? – ١٩٧٠ ? .

ثانياً :?لكنايــة مفهومهــا

الكناية أصل من أصول علم البيان، ومسلك دقيق للتعبير عمَّا يدور في النفس من معان خبيئة، حين لا يستطيع المتكلم التصريح بها، ولكنه يومئ إليها دون الكشف عن قناعها.

وهي مصدر كنيتُ بكذا، والمضارع : تكنى، مثل رمى يرمي، وقيل : كنوْتُ بكذا، ومضارعه يكنو، مثل دعا يدعو، وهذا القول يرد عليه أنهم قالوا في المصدر كناية، ولم يسمع كناوة بالواو، ولا يقال : إن الواو قلبت ياء في المصدر لكسر فائه، لأن الكسرة في نحو ذلك لا توجب قلبا، كما في علاوة [1]، ومادة كنى تدور حول الخفاء والستر في جميع تقلباتها [2]، يقال : كنيت الشيء إذا سترته، وإنما أُجْري هذا الاسم على هذا النوع من الكلام، لأنه يستر معنى ويُظْهر غيره فلا جرم سميت كناية [3]، فلما كانت فنا مبنيا على الستر كان لها من اسمها أوفى نصيب.

---

(١) ينظر : حاشية ?لدسوقي (ضمن شر? ??لتلخيص) : ٤ / ٢٣٧ ، ???لكتب?لعلمية – بير? ? ، لبنا? .

(٢) ينظر : مفتا? ?لعلو? للسكاكي : ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، طبعة مصطفى ?لبابي ?لحلبي ، ??لمطبعة ?لميمنة ، ضبط ?شر ? : ? / نعيم ????? ، ???لكتب?لعلمية ، بير? ? ، ???لى ، ١٩٨٣ ? .

(٣) ينظر :?لطر?? ?لمتضمن لأسر?? ?لبلاغة ?علو? حقائق ?لإعجا? للعلو? : ١٧٣ – ??? ?لكتب?لعلمية – بير? ? – لبنا? – ???لى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ ? .

وهي في اصطلاح البلاغيين : " لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادة معناه حينئذ "[١]، مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيق للفظ بخلاف قرينة المجاز فإنها مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

يقول الإمام عبد القاهر في بيان حقيقتها : " والمرادُ بالكناية هاهنا : أن يُريد المتكلمُ إثباتَ معنًى من المعاني، فلا يذكُرُه باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكنْ يَجيءُ إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعَلُه دليلاً عليه ؛ مثال ذلك قولهم: « هو طويل النجاد »، يريدونَ : طويلَ القامة. « وكثيرُ رمادِ القِدْر »، يَعْنون: كثيرَ القِرى، وفي المرأة : « نَؤومُ الضحى»، والمرادُ أنها مُتْرفةٌ مخَدْومة، لها مَنْ يكفيها أمْرَها، فقد أرادوا في هذا كله كما ترى، معنًى، ثمَّ لم يَذْكُروه بلفظه الخاصِّ به، ولكنهم تَوصَّلوا إليه بِذِكْر معنًى آخر، مِنْ شأنِه أن يَرْدُفَه في الوجود، وأنْ يكونَ، إذا كان، أَفلا تَرى أنَّ القامةَ إذا طالتْ، طالَ النجادُ ؟ وإذا كثُرَ القِرى، كثُرَ رَمادُ القِدْر؟ وإذا كانت المرأةُ مُتْرفةً، لها مَنْ يَكفيها أَمْرَها، رَدِف ذلك أَنْ تنام إلى الضحى؟ "[٢].

---

(١) ?لإيضا ? للخطيب ?لقز?يني : ٥ / ١٥٨ ، ? / محمد عبد?لمنعم خفاجي ، ? ٣ ، ?? ?لجيل ، بير? ? – بد?? .

(٢) ?لائل?لإعجا? لعبد?لقاهر?لجرجاني : ٦٦ ، قر?? ?علق عليه : محمو? محمد شا كـر ،?لهيئة?لمصرية?لعامة للكـتا ? ، مكـتبة?لأسر? ٢٠٠٠ ? .

ولما كانت الكناية فنا مبنيا على الستر والخفاء، اتسمت بالدقة والغموض، يقول صاحب الطراز : " اعلم أن الكناية وادٍ من أودية البلاغة، وركن من أركان المجاز، وتختص بدقة وغموض "(١) .

ويقول شيخ البلغاء : " هذا فنٌ من القول دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، وهو أنَّا نراهم كما يصنعون في نفسِ الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكنايةِ والتعريضِ، كذلك يذهبون في إثباتِ الصفة هذا المذهب، وإذا فعلوا ذلك بدَتْ هناك محاسنُ تملأ الطرف وَدقائقُ تُعجزُ الوصفَ، ورأيتَ هنالك شعراً شاعراً وسحراً ساحراً، وبلاغةً لا يكمل لها إلاّ الشاعرُ المُفلِقُ والخطيب المِصْقَعُ، وكما أنَّ الصفةَ إذا لم تأتك مُصرَّحاً بذكرها مكشوفاً عن وجهها ولكنْ مدلولاً عليها بغيرها كان ذلك أفخمَ لشأنها وألطفَ لمكانِها، كذلك إثباتُك الصفةَ للشيءِ تثبِتُها له إذا لم تُلْقِه إلى السامع صريحاً وجئتَ إليه من جانبِ التعريضِ والكنايةِ والرمزِ والإشارة كان له من الفضل والمزية ومن الحُسْنِ والرونَقِ ما لا يقلُّ قليلُه، ولا يُجْهلُ موضعُ الفضيلة فيه "(٢) .

فالكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وهي أبلغ في – في موطنها – من الحقيقة، يقول الشيخ الخطيب : " أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة... وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر "(٣) .

---

(١) ?لطر?? للعلو ? : ١٧٢ .

(٢) ?لائل?لإعجا? : ٣٠٦ .

(٣) ?لإيضا ? للخطيب?لقز?يني : ٥ / ١٧٨ .

والسبب في أن الكناية أبلغ من التصريح أنها تثبت الشيء بالدليل والبرهان حيث إن : " كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذَجاً غُفْلاً وذلك لأنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط"[١].

كما أنها " تبرز المعنى مصوَّراً وتظهر المعقول في صورة محسوسة"[٢]، فتخرج المعاني في صورة حسية تذخر بالحياة والحركة، مما يجعلها تتمكن في النفس وترسخ في الذهن، ولاشك " أن هذه خاصة الفنون، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو لليأس، بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموسا " [٣] .

كما أنها من " العناصر البارزة التي يتوسل بها الشاعر في تشكيل الصورة وتقف جانبا إلى جنب مع العناصر الأخرى من تشبيه واستعارة " [٤] .

إلى غير ذلك من أوجه البلاغة والتي تظهر في كل أسلوب على حدةٍ، كما سيتضح أثناء تحليل تلك العمرية، فإلى نص القصيدة.

---

(١) ?لائل?لإعجا? : ٧٢ .

(٢)?فنا??لبيا? ،?لشحا ??بوستيت : ٢٦٩ ، مطبعة?لتركي ، طنطا ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ ?

(٣) جو?هر ?لبلاغة للسيد / ?حمد ?لهاشمي : ٣٠٣ ، ??? ?لفكر للطباعة ??لنشر ??لتو?يع ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ ? .

(٤)?لصو??لفنية في شعر ?عبل : ٣١٥ ، ? / على?بو?يد ، ???لمعا? ? ، ? ٢ ، ١٩٨٣ ?

نص القصيدة

(عمر بن الخطاب)([1])

حَسبُ القَوافي وَحَسبي حينَ أُلقيها ... أَنّي إِلى ساحَةِ الفاروقِ أُهديها

لاهُمَّ ، هَب لي بَياناً أَستَعينُ بِهِ ... عَلى قَضاءِ حُقوقٍ نامَ قاضيها

قَد نازَعَتنِيَ نَفسي أَن أَوَفّيها ... وَلَيسَ في طَوقِ مِثلي أَن يُوَفّيها

فَمُر سَرِيَّ المَعاني أَن يُواتِيَني ... فيها فَإِنّي ضَعيفُ الحالِ واهيها

مَولى المُغيرَةِ لا جادَتكَ غادِيَةٌ ... مِن رَحمَةِ اللَهِ ما جادَت غَواديها

مَزَّقتَ مِنهُ أَديماً حَشوُهُ هِمَمٌ ... في ذِمَّةِ اللَهِ عاليها وَماضيها

طَعَنتَ خاصِرَةَ الفاروقِ مُنتَقِماً ... مِنَ الحَنيفَةِ في أَعلى مَجاليها

فَأَصبَحَت دَولَةُ الإِسلامِ حائِرَةً ... تَشكو الوَجيعَةَ لَمّا ماتَ آسيها

مَضى وَخَلَّفَها كَالطَودِ راسِخَةً ... وَزانَ بِالعَدلِ وَالتَقوى مَغانيها

تَنبو المَعاوِلُ عَنها وَهيَ قائِمَةٌ ... وَالهادِمونَ كَثيرٌ في نَواحيها

حَتّى إِذا ما تَوَلّاها مُهَدِّمُها ... صاح الزَوالُ بِها فَانداكَّ عاليها

واهاً عَلى دَولَةٍ بِالأَمسِ قَد مَلَأَت ... جَوانِبَ الشَرقِ رَغداً مِن أَياديها

كَم ظَلَّلَتها وَحاطَتها بِأَجنِحَةٍ ... عَن أَعيُنِ الدَهرِ قَد كانَت تُواريها

مِنَ العِنايَةِ قَد ريشَت قَوادِمُها ... وَمِن صَميمِ الثُقى ريشَت خَوافيها

وَاللَهِ ما غالَها قِدماً وَكادَ لَها ... وَاجتَثَّ دَوحَتَها إِلّا مَواليها

لَو أَنَّها في صَميمِ العُربِ قَد بَقِيَت ... لَما نَعاها عَلى الأَيّامِ ناعيها

يا لَيتَهُم سَمِعوا ما قالَهُ عُمَرٌ ... وَالروحُ قَد بَلَغَت مِنهُ تَراقيها

لا تُكثِروا مِن مَواليكُم فَإِنَّ لَهُم ... مَطامِعاً بَسَماتُ الضَعفِ تُخفيها

رَأَيتَ في الدينِ آراءً مُوَفَّقَةً ... فَأَنزَلَ اللَهُ قُرآناً يُزَكّيها

---

١ - ?لقصيد? :?نشدها ?لشاعر فى حفل بمد?? ????? ?لمعا? ? بد? ? ?لجماميز مسا? ?لجمة ٨ فبر?ير سنة ١٩١٨ ، ?هى فى ?يو?نه ?: ٧٧

وَكُنــتَ أَوَّلَ مَــن قَــرَّت بِصُــحبَتِهِ ... عَــينُ الحَنيفَــةِ وَاجتــازَت أَمانيهــا
قَـد كُنـتَ أَعـدى أَعاديهـا فَصِـرتَ لَهـا ... بِنِعمَــةِ اللَهِ حِصــناً مِــن أَعاديهــا
خَرَجــتَ تَبغـي أَذاهــا فــي مُحَمَّــدِها ... وَلِلحَنيفَــــةِ جَبّــــارٌ يُواليهــــا
فَلَــم تَكَــد تَســمَعُ الآيــاتِ بِالغَــةً ... حَتّــى انكَفَــأتَ تُتــاوي مَــن يُناويهــا
سَـمِعتَ (سـورَةَ طَـهَ) مِـن مُرَتِّلِهـا ... فَزَلزَلَــت نِيَّــةً قَــد كُنــتَ تَنويهــا
وَقُلــتَ فيهــا مَقــالاً لا يُطاوِلُــهُ ... قَـولُ المُحِـبِّ الَّـذي قَـد بـاتَ يُطريهـا
وَيَـومَ أَسـلَمتَ عَـزَّ الحَـقُّ وَارتَفَعَـت ... عَــن كاهِــلِ الــدينِ أَثقــالٌ يُعانيهــا
وَصـاحَ فيـهِ (بِـلالٌ) صَـيحَةً خَشَـعَت ... لَهــا القُلــوبُ وَلَبَّــت أَمــرَ باريهــا
فَأَنــتَ فــي زَمَــنِ المُختــارِ مُنجِــدُها ... وَأَنــتَ فــي زَمَــنِ الصِــدّيقِ مُنجيهــا
كَــمِ اســتَراكَ رَســولُ اللَهِ مُغتَبِطــاً ... بِحِكمَــةٍ لَــكَ عِنــدَ الــرَأيِ يُلفيهــا
بــاتَ النَبِــيُّ مُسَــجّىً فــي حَظيرَتِــهِ ... وَأَنــتَ مُســتَعِرُ الأَحشــاءِ داميهــا
تَهـيمُ بَـينَ عَجـيجِ النـاسِ فـي دَهَـشٍ ... مِن نَبأَةٍ قَد سَرى في الأَرضِ ساريها
تَصيحُ مَن قالَ نَفسُ المُصطَفى قُبِضَت ... عَلَــوتُ هامَتَــهُ بِالسَــيفِ أَبريهــا
أَنســاكَ حُبُّــكَ طَــهَ أَنَّــهُ بَشَــرٌ ... يُجـري عَلَيـهِ شُـؤونَ الكَـونِ مُجريهـا
وَأَنَّــــهُ وارِدٌ لا بُــــدَّ مَــــورِدَهُ ... مِــنَ المَنِيَّــةِ لا يُعفيــهِ ســاقيها
نَسـيتَ فـي حَـقِّ طَـهَ آيَـةً نَزَلَـت ... وَقَــد يُــذَكَّرُ بِالآيــاتِ ناســيها
ذَهِلــتَ يَومــاً فَكانَــت فِتنَــةٌ عَمَــمٌ ... وَثــابَ رُشــدُكَ فَانجابَــت دَياجيهــا
فَلِلسَــقيفَةِ يَــومٌ أَنــتَ صــاحِبُهُ ... فيــهِ الخِلافَــةُ قَــد شــيدَت أَواســيها
فمَـدَّت لَهـا الأَوسُ كَفّـاً كَـي تَناوَلَهـا ... فَمَــدَّتِ الخَــزرَجُ الأَيــدي تُباريهــا
وَظَــنَّ كُــلُّ فَريــقٍ أَنَّ صــاحِبَهُم ... أَولــى بِهــا وَأَتــى الشَــحناءَ آتيهــا
حَتّــى انبَرَيــتَ لَهُــم فَارتَــدَّ طــامِعُهُم ... عَنهــا وَأَخّــى أَبــو بَكــرٍ أَواخيهــا
وَقَولَــةٍ لِعَلِــيٍّ قالَهــا عُمَــرٌ ... أَكــرِم بِســامِعِها أَعظِــم بِمُلقيهــا
حَرَقــتُ دارَكَ لا أُبقــي عَلَيــكَ بِهــا ... إِن لَـم تُبـايِع وَبِنـتُ المُصـطَفى فيهـا
مـا كـانَ غَيـرُ أَبـي حَفـصٍ يَفـوهُ بِهـا ... أَمــامَ فــارِسِ عَــدنانٍ وَحاميهــا

كِلاهُمـــا فـــي سَـــبيلِ الحَـــقِّ عَزمَتُـــهُ ... لا تَثنَـــي أَو يَكـــونَ الحَـــقُّ ثانيهـــا
فَاذكُرهُمـــا وَتَـــرَحَّم كُلَّمـــا ذَكَـــروا ... أَعاظِمـــاً أُلِّهـــوا فـــي الكَـــونِ تَأليهـــا
كَـم خِفتَ فـي اللهِ مَضـعوفاً دَعـاكَ بِـهِ ... وَكَـــم أَخَفـــتَ قَوِيّـــاً يَنثَنـــي تيهـــا
وَفـــي حَـــديثِ فَتـــى غَسّـــانَ مَوعِظَـــةٌ ... لِكُـــلِّ ذي نَغـــرَةٍ يَـــأبى تَنَاســـيها
فَمـــا القَـــوِيُّ قَوِيّـــاً رَغـــمَ عِزَّتِـــهِ ... عِنـدَ الخُصـومَةِ وَالفـاروقُ قاضـيها
وَمـــا الضَـــعيفُ ضَـــعيفاً بَعـــدَ حُجَّتِـــهِ ... وَإِن تَخاصَـــمَ واليهـــا وَراعيهـــا
وَمـا أَقَلَّتَ (أَبـا سُـفيانَ) حـينَ طَـوى ... عَنـــكَ الهَدِيَّـــةَ مُعتَـــزّاً بِمُهـــديها
لَـم يُغـنِ عَنـهُ وَقَـد حاسَـبتَهُ حَسَـبٌ ... وَلا (مُعاوِيَـــةٌ) بِالشـــامِ يَجبيهـــا
قَيَّـــدتَ مِنـــهُ جَلـــيلاً شـــابَ مَفرِقُـــهُ ... فـــي عِـــزَّةٍ لَـــيسَ مِـــن عِـــزٍّ يُـــدانيها
قَـــد نَوَّهـــوا بِاســـمِهِ فـــي جاهِلِيَّتِـــهِ ... وَزادَهُ سَـــيِّدُ الكَـــونَينِ تَنويهـــا
فـــي فَـــتحِ مَكَّـــةَ كانَـــت دارُهُ حَرَمـــاً ... قَـــد أَمَّـــنَ اللهُ بَعـــدَ البَيـــتِ غاشـــيها
وَكُـلُّ ذَلِـكَ لَـم يَشـفَع لَـدى (عُمَـرٍ) ... فـــي هَفـــوَةٍ لِأَبـــي سُـــفيانَ يَأتيهـــا
تَـــاللهِ لَـــو فَعَـــلَ (الخَطّـــابُ) فَعلَتَـــهُ ... لَمـــا تَـــرَخَّصَ فيهـــا أَو يُجازيهـــا
فَـــلا الحَســـابَةُ فـــي حَـــقٍّ يُجامِلُهـــا ... وَلا القَرابَـــةُ فـــي بُطـــلٍ يُحابيهـــا
وَتِلـــكَ قُـــوَّةُ نَفـــسٍ لَـــو أَرادَ بِهـــا ... شُـــمَّ الجِبـــالِ لَمـــا قَـــرَّت رَواســـيها
سَل قاهِرَ الفُرسِ وَالرومانِ هَل شَفَعَت ... لَـــهُ الفُتـــوحُ وَهَـــل أَغنـــى تَواليهـــا
غَـــزى فَـــأَبلى وَخَيـــلُ اللهِ قَـــد عُقِـــدَت ... بِـــاليُمنِ وَالنَصـرِ وَالبُشـرى نَواصـيها
يَرمـــي الأَعـــادي بِـــآراءٍ مُسَـــدَّدَةٍ ... وَبِـــالفَوارِسِ قَـــد ســـالَت مَـــذاكيها
مـــا واقَـــعَ الـــرومَ إِلّا فَـــرَّ قارِحُهـــا ... وَلا رَمـــى الفُـــرسَ إِلّا طـــاشَ راميهـــا
وَلَـــم يَجُـــز بَلـــدَةً إِلّا سَـــمِعتَ بِهـــا ... اللهُ أَكبَـــرُ تَـــدوي فـــي نَواحيهـــا
عِشـــرونَ مَوقِعَـــةً مَـــرَّت مُحَجَّلَـــةً ... مِـن بَعدِ عَشرٍ بَنـانُ الفَتحِ تُحصيها
وَ(خالِـــدٌ) فـــي سَـــبيلِ اللهِ موقِـــدُها ... وَ(خالِـــدٌ) فـــي سَـــبيلِ اللهِ صـــاليها
أَتـــاهُ أَمـــرُ (أَبـــي حَفـــصٍ) فَقَبَّلَـــهُ ... كَمـــا يُقَبِّـــلُ آيَ اللهِ تاليهـــا

وَاستَقبَلَ العَزلَ في إبّانِ سَطوَتِهِ ... وَمجدِهِ مُستَريحَ النَفسِ هاديها
فَاعجَب لِسَيِّدِ مَخزومٍ وَفارِسِها ... يَومَ النِزالِ إذا نادى مُناديها
يَقودُهُ حَبَشِيٌّ في عِمامَتِهِ ... وَلا تُحَرِّكُ مَخزومٌ عَواليها
أَلقى القِيادَ إلى الجَرّاحِ مُمتَثِلاً ... وَعِزَّةُ النَفسِ لَم تُجرَح حَواشيها
وَانضَمَّ لِلجُندِ يَمشي تَحتَ رايَتِهِ ... وَبِالحَياةِ إذا مالَت يُفَدّيها
وَما عَرَتهُ شُكوكٌ في خَليفَتِهِ ... وَلا ارتَضى إمرَةَ الجَرّاحِ تَمويها
فَخالِدٌ كانَ يَدري أَنَّ صاحِبَهُ ... قَد وَجَّهَ النَفسَ نَحوَ اللَهِ تَوجيها
فَما يُعالِجُ مِن قَولٍ وَلا عَمَلٍ ... إلّا أَرادَ بِهِ لِلناسِ تَرفيها
لِذاكَ أَوصى بِأَولادٍ لَهُ عُمَراً ... لَمّا دَعاهُ إلى الفِردَوسِ داعيها
وَقيلَ خالَفتَ يا (فاروقُ) صاحِبَنا ... فيهِ وَقَد كانَ أَعطى القَوسَ باريها
فَقالَ خِفتُ افتِتانِ المُسلِمينَ بِهِ ... وَفِتنَةُ النَفسِ أَعيَت مَن يُداويها
هَبوهُ أَخطَأَ في تَأويلِ مَقصِدِهِ ... وَأَنَّها سَقطَةٌ في عَينِ ناعيها
فَلَن تَعيبَ حَصيفَ الرَأيِ زَلَّتُهُ ... حَتّى يَعيبَ سُيوفَ الهِندِ نابيها
تَاللَهِ لَم يَتَّبِع في (ابنِ الوَليدِ) هَوىً ... وَلا شَفى غُلَّةً في الصَدرِ يَطويها
لَكِنَّهُ قَد رَأى رَأياً فَأَتبَعَهُ ... عَزيمَةً مِنهُ لَم تُثلَم مَواضيها
ولَم يَرعَ في طاعَةِ المَولى خُؤولَتَهُ ... وَلا رَعى غَيرَها فيما يُنافيها
وَما أَصابَ ابنَهُ وَالسَوطُ يَأخُذُهُ ... لَدَيهِ مِن رَأفَةٍ في الحَدِّ يُبديها
إنَّ الَّذي بَرَأَ (الفاروقَ) نَزَّهَهُ ... عَنِ النَقائِصِ وَالأَغراضِ تَنزيها
فَذاكَ خُلقٌ مِنَ الفِردَوسِ طينَتُهُ ... اللَهُ أَودَعَ فيها ما يُنَقّيها
لا الكِبرُ يَسكُنُها لا الظُلمُ يَصحَبُها ... لا الحِقدُ يَعرِفُها لا الحِرصِ يُغويها
شاطَرتَ داهِيَةَ السُوّاسِ ثَروَتَهُ ... وَلَم تَخَفهُ بِمِصرٍ وَهوَ واليها
فأَنتَ تَعرِفُ (عَمراً) في حَواضِرِها ... وَلَستَ تَجهَلُ (عَمراً) في بَواديها
لَم تُنبِتِ الأَرضُ كَابنِ العاصِ داهِيَةً ... يَرمي الخُطوبَ بِرَأيٍ لَيسَ يُخطيها
فَلَم يُرِغ حيلَةً فيما أَمَرتَ بِهِ ... وَقامَ (عَمرٌو) إلى الأَجمالِ يُزجيها

وَلَـم تُقِـل عـامِلاً مِنهـا وَقَـد كَثُـرَت ... أَموالُـهُ وَفَشـا فـي الأَرضِ فاشـيها
وَمـا وَقـى ابنُـكَ عَبـدُ اللَهِ أَينُقَـهُ ... لَمّـا اطَّلَعـتَ عَلَيهـا فـي مَراعيهـا
هـا فـي حِمـاهُ وَهـيَ سـارِحَةٌ ... مِثـلَ القُصـورِ قَـدِ اهتَـزَّت أَعاليهـا
فَقُلـتَ مـا كـانَ عَبـدُ اللَهِ يُشـبِعُها ... لَـو لَـم يَكُـن وَلَـدي أَو كـانَ يُرويهـا
قَـدِ اسـتَعانَ بِجـاهي فـي تِجارَتِـهِ ... وَبـاتَ بِاسـمِ أَبـي حَفـصٍ يُنَمّيهـا
رُدّوا النِيـاقَ لِبَيـتِ المـالِ إِنَّ لَـهُ ... حَـقَّ الزِيـادَةِ فيهـا قَبـلَ شـاريها
وَهَـذِهِ خُطَّـةٌ لِلَّهِ واضِـعُها ... رَدَّت حُقوقـاً فَأَغنَـت مُسـتَميحيها
مـا الاشـتِراكِيَّةُ المَنشـودُ جانِبُهـا ... بَينَ الوَرى غَيرَ مَبنـيً مِن مَبانيهـا
فَـإِن نَكُـن نَحـنُ أَهليهـا وَمَنبِتَهـا ... فَـإِنَّهُم عَرَفوهـا قَبـلَ أَهليهـا
وَراعَ صـاحِبَ كِسـرى أَن رَأى عُمَـراً ... بَـينَ الرَعِيَّـةِ عُطـلاً وَهـوَ راعيهـا
وَعَهـدُهُ بِمُلـوكِ الفُـرسِ أَنَّ لَهـا ... سوراً مِنَ الجُندِ وَالأَحراسِ يَحميهـا
رَآهُ مُسـتَغرِقاً فـي نَومِـهِ فَـرَأى ... فيـهِ الجَلالَـةَ فـي أَسـمى مَعانيهـا
فَوقَ الثَرى تَحتَ ظِلِّ الدَوحِ مُشتَمِلاً ... بِبُـردَةٍ كـادَ طـولُ العَهـدِ يُبليهـا
فَهـانَ فـي عَينِـهِ مـا كـانَ يَكبُـرُهُ ... مِـنَ الأَكاسِـرِ وَالـدُنيا بِأَيـديها
وَقـالَ قَولَـةَ حَـقٍّ أَصـبَحَت مَـثَلاً ... وَأَصـبَحَ الجيـلُ بَعـدَ الجيـلِ يَرويهـا
أَمِنـتَ لَمّـا أَقَمـتَ العَـدلَ بَيـنَهُمُ ... فَنِمـتُ نَـومَ قَريـرِ العَـينِ هانيهـا
يـا رافِعـاً رايَـةَ الشـورى وَحارِسَـها ... جَـزاكَ رَبُّـكَ خَيـراً عَـن مُحِبّيهـا
لَـم يُلهِـكَ النَـزعُ عَـن تَأييـدِ دَولَتِهـا ... وَلِلمَنِيَّـةِ آلامٌ تُعانيهـا
لَـم أَنـسَ أَمـرَكَ لِلمِقـدادِ يَحمِلُـهُ ... إِلـى الجَماعَـةِ إِنـذاراً وَتَنبيهـا
إِن ظَـلَّ بَعـدَ ثَـلاثٍ رَأيُهـا شُـعَباً ... فَجَـرِّدِ السَيفَ وَاضرِب في هَواديها
فَاعجَـب لِقُـوَّةِ نَفسٍ لَـيسَ يَصـرِفُها ... طَعـمُ المَنِيَّـةِ مُـرّاً عَـن مَراميهـا
دَرى عَميـدُ بَنـي الشـورى بِمَوضِـعِها ... فَعـاشَ مـا عـاشَ يَبنيهـا وَيُعليهـا
وَمـا اسـتَبَدَّ بِـرَأيٍ فـي حُكومَتِـهِ ... إِنَّ الحُكومَـةَ تُغـري مُسـتَبِدّيها
يـا مَـن صَـدَفتَ عَـنِ الـدُنيا وَزينَتِهـا ... فَلَـم يَغُـرَّكَ مِـن دُنيـاكَ مُغريهـا

مـــاذا رَأَيـــتَ بِبـــابِ الشـــامِ حـــينَ رَأَوا ... أَن يُلبِســـوكَ مِـــنَ الأَثـــوابِ زاهيهـــا
وَيُركِبـــوكَ عَلـــى البِـــرذَونِ تَقدُمُـــهُ ... خَيـــلٌ مُطَهَّمَـــةٌ تَحلـــو مَرائيهـــا
مَشـــى فَهَملَـــجَ مُختـــالاً بِراكِبِـــهِ ... وَفـــي البَـــراذينِ مـــا تُزهـــى بِعاليهـــا
فَصِـحتَ يـا قَـومُ كـادَ الزَهـوُ يَقتُلُنـي ... وَداخَلَتنِـــيَ حـــالٌ لَســـتُ أَدريهـــا
وَكـــادَ يَصـــبو إِلـــى دُنيـــاكُمُ عُمَـــرٌ ... وَيَرتَضـــي بَيـــعَ باقيـــهِ بِفانيهـــا
رُدّوا رِكـــابي فَـــلا أَبغـــي بِـــهِ بَـــدَلاً ... رُدّوا ثِيـــابي فَحَســـبي اليَـــومَ باليهـــا
وَمَـــن رَآهُ أَمـــامَ القِـــدرِ مُنبَطِحـــاً ... وَالنـــارُ تَأخُـــذُ مِنـــهُ وَهـــوَ يُـــذكيها
وَقَـــد تَخَلَّـــلَ فـــي أَثنـــاءِ لِحيَتِـــهِ ... مِنهـا الـدُخانُ وَفـوهٌ غـابَ فـي فيهـا
رَأى هُنـــاكَ أَميـــرَ المُـــؤمِنينَ عَلـــى ... حـــالٍ تَـــروعُ لَعَمـــرُ اللَهِ رائيهـــا
يَستَقبِلُ النـارَ خَـوفَ النـارِ فـي غَـدِهِ ... وَالعَـينُ مِـن خَشـيَةٍ سـالَت مَآقيهـا
إِن جـاعَ فـي شِـدَّةٍ قَـومٌ شَـرِكتَهُمُ ... في الجوعِ أَو تَنجَلي عَنهُم غَواشيها
جـــوعُ الخَليفَـــةِ وَالـــدُنيا بِقَبضَـــتِهِ ... فـــي الزُهـــدِ مَنزِلَـــةٌ سُـبحانَ موليهـا
فَمَـــن يُبـــاري أَبـــا حَفـــصٍ وَســـيرَتَهُ ... أَو مَـــن يُحـــاوِلُ لِلفـــاروقِ تَشـــبيها
يَـومَ اشـتَهَت زَوجُـهُ الحَلـوى فَقـالَ لَهـا ... مِـن أَيـنَ لـي ثَمَـنُ الحَلـوى فَأَشـريها
لا تَمتَطـي شَـهَواتِ الـنَفسِ جامِحَـةً ... فَكِسـرَةُ الخُبـزِ عَـن حَلـواكِ تَجزيهـا
وَهَـل يَفـي بَيـتُ مـالِ المُسـلِمينَ بِمـا ... تـوحي إِلَيـكِ إِذا طاوَعـتِ موحيهـا
قالَـــت لَـــكَ اللَهُ إِنّـــي لَســـتُ أَرزَؤُهُ ... مـــالاً لِحاجَـــةِ نَفـــسٍ كُنـــتُ أَبغيهـــا
لَكِـــن أُجَنِّـــبُ شَـــيئاً مِـــن وَظيفَتِنـــا ... فـــي كُـــلِّ يَـــومٍ عَلـــى حـــالٍ أُســـوّيها
حَتّـــى إِذا مـــا مَلَكنـــا مـــا يُكافِئُهـــا ... شَـــرَيتُها ثُـــمَّ إِنّـــي لا أُثَنّيهـــا
قـالَ اذهَبـي وَاعلَمـي إِن كُنـتِ جاهِلَـةً ... أَنَّ القَناعَـــةَ تُغنـــي نَفـــسَ كاســـيها
وَأَقبَلَـت بَعـدَ خَمـسٍ وَهـيَ حامِلَـةٌ ... دُرَيهِمـــاتٍ لِتَقضـــي مِـــن تَشَـــهّيها
فَقـــالَ نَبَّهـــتِ مِنّـــي غـــافِلاً فَـــدَعي ... هَـذي الـدَراهِمَ إِذ لا حَـقَّ لـي فيهـا
وَيلـــي عَلـــى عُمَـــرٍ يَرضـــى بِموفِيَـــةٍ ... عَلـــى الكَفـــافِ وَيَنهـــى مُســـتَزيديها
مـا زادَ عَـن قوتِنـا فَالمُسـلِمونَ بِـهِ ... أَولـى فَقـومي لِبَيـتِ المـالِ رُدّيهـا

كَـذاكَ أَخلاقُـهُ كانَـت وَمـا عُهِـدَت ... بَعـدَ النُبُـوَّةِ أَخـلاقٌ تُحاكيهـا
فـي الجاهِلِيَّـةِ وَالإِسـلامِ هَيبَتُـهُ ... تَثني الخُطـوبَ فَـلا تَعـدو عَواديهـا
فـي طَـيِّ شِـدَّتِهِ أَسـرارُ مَرحَمَـةٍ ... لِلعـالَمينَ وَلَكِـن لَـيسَ يُفشـيها
وَبَـينَ جَنبَيـهِ فـي أَوفـى صَـرامَتِهِ ... فُـؤادُ والِـدَةٍ تَرعـى ذَراريهـا
أَغنَـت عَـنِ الصـارِمِ المَصـقولِ دِرَّتُـهُ ... فَكَـم أَخافَـت غَـوِيَّ الـنَفسِ عاتيهـا
كانَـت لَـهُ كَعَصـا (موسـى) لِصـاحِبِها ... لا يَنـزِلُ البُطـلُ مُجتـازاً بِواديهـا
أَخـافَ حَتّـى الـذَراري فـي مَلاعِبِهـا ... وَراعَ حَتّـى الغَـواني فـي مَلاهيهـا
أَرَيـتَ تِلـكَ الَّتـي لِلَّهِ قَـد نَـدَرَت ... أُنشـودَةً لِرَسـولِ اللهِ تُهـديها
قالَـت: نَـذَرتُ لَـئِن عـادَ النَبِـيُّ لَنـا ... مِـن غَـزوَةٍ لَعَلـى دُفّـي أُغَنّيهـا
وَيَمَّمَـت حَضـرَةَ الهـادي وَقَـد مَـلَأَت ... أَنـوارُ طَلعَتِـهِ أَرجـاءَ ناديهـا
وَاسـتَأذَنَت وَمَشَـت بِالـدُفِّ وَانـدَفَعَت ... تُشـجي بِأَلحانِهـا مـا شـاءَ مُشـجيها
وَ(المُصطَفى) وَ(أَبـو بَكـرٍ) بِجانِبِـهِ ... لا يُنكِـرانِ عَلَيهـا مِـن أَغانيهـا
حَتّـى إِذا لاحَ مِـن بُعـدٍ لَهـا (عُمَـرٌ) ... خـارَت قُواهـا وَكـادَ الخَـوفُ يُرديهـا
وَخَبَّـأَت دُفَّهـا فـي ثَوبِهـا فَرَقـاً ... مِنـهُ وَوَدَّت لَـوَ انَّ الأَرضَ تَطويهـا
قَـد كـانَ حِلـمُ رَسـولِ اللهِ يُؤنِسُـها ... فَجاءَ بَطشُ (أَبي حَفصٍ) يُخَشّيها
فَقـالَ مَهـبِطُ وَحـيِ اللهِ مُبتَسِـماً ... وَفـي ابتِسـامَتِهِ مَعنـىً يُواسـيها
قَـد فَـرَّ شَـيطانُها لَمّـا رَأى (عُمَـراً) ... إِنَّ الشَـياطينَ تَخشـى بَـأسَ مُخزيهـا
وَفِتيَـةٍ وَلِعـوا بِـالراحِ فَانتَبَـذوا ... لَهُـم مَكانـاً وَجَـدّوا فـي تَعاطيهـا
ظَهَـرتَ حـائِطَهُم لَمّـا عَلِمـتَ بِهِـم ... وَاللَيـلُ مُعتَكِـرُ الأَرجـاءِ سـاجيها
حَتّـى تَبَيَّـتَهُم وَالخَمـرُ قَـد أَخَـذَت ... تَعلـو ذُؤابَـةَ سـاقيها وَحاسـيها
سَـفَّهتَ آراءَهُـم فيهـا فَمـا لَبِثـوا ... أَن أَوسَـعوكَ عَلـى مـا جِئـتَ تَسـفيها
وَرُمـتَ تَفقـيهَهُم فـي ديـنِهِم فَـإِذا ... بِالشَـربِ قَـد بَرَعـوا الفـاروقَ تَفقيهـا
قـالوا مَكانَـكَ قَـد جِئنـا بِواحِـدَةٍ ... وَجِئتَنـا بِـثَلاثٍ لا تُباليهـا
فَـأتِ البُيـوتَ مِـنَ الأَبـوابِ يـا عُمَـرٌ ... فَقَـد يُـزَنُّ مِـنَ الحيطـانِ آتيهـا

وَاستَأذِنِ النـاسَ أَن تَغشـى بُيـوتَهُمُ ... وَلا تُلِـمَّ بِـدارٍ أَو تُحَيّيهـا

وَلا تَجَسَّـس فَهَـذي الآيُ قَـد نَزَلَـت ... بِـالنَهيِ عَنـهُ فَلَـم تَـذكُر نَواهيهـا

فَعُـدتَ عَـنهُم وَقَـد أَكبَـرتَ حُجَّـتَهُم ... لَمّـا رَأَيـتَ كِتـابَ اللَهِ يُمليهـا

وَمـا أَنِفـتَ وَإِن كـانوا عَلـى حَـرَجٍ ... مِـن أَن يَحُجَّـكَ بِالآيـاتِ عاصـيها

وَسَرحَةٍ فـي سَماءِ السَرحِ قَد رَفَعَت ... بِبَيعَـةِ المُصطَفى مِـن رَأسِـها تيهـا

أَزَلتَهـا حـينَ غـالَوا فـي الطَـوافِ بِهـا ... وَكـانَ تَطـوافُهُم لِلـدينَ تَشـويها

هَـذي مَناقِبُـهُ فـي عَهـدِ دَولَتِـهِ ... لِلشـاهِدينَ وَلِلأَعقـابِ أَحكيهـا

فـي كُـلِّ واحِـدَةٍ مِـنهُنَّ نابِلَـةٌ ... مِـنَ الطَبـائِعِ تَغـذو نَفـسَ واعيهـا

لَعَـلَّ فـي أُمَّـةِ الإِسـلامِ نابِتَـةً ... تَجلـو لِحاضِـرِها مِـرآةَ ماضـيها

حَتّـى تَـرى بَعـضَ مـا شـادَت أَوائِلُهـا ... مِـنَ الصُـروحِ وَمـا عانـاهُ بانيهـا

وَحَسبُها أَن تَـرى مـا كـانَ مِـن عُمَـرٍ ... حَتّـى يُنَبِّـهَ مِنهـا عَـينَ غافيهـا

الكناية في تصوير حالة الشاعر حين أقدم على نظم عمريته

وفي هذا يقول حافظ :

حَسبُ القَوافي وَحَسبي حينَ أُلقيها ... أَنّي إِلى ساحَةِ الفاروقِ أُهديها
لاهُمَّ، هَب لي بَياناً أَستَعينُ بِهِ ... عَلى قَضاءِ حُقوقٍ نامَ قاضيها[1]
قَد نازَعَتنِيَ نَفسي أَن أَوَفّيها ... وَلَيسَ في طَوقِ مِثلي أَن يُوَفّيها
فَمُر سَرِيَّ المَعاني أَن يُواتِيَني ... فيها فَإِنّي ضَعيفُ الحالِ واهيها

وواضح أن الأبيات السابقة تصف حالة الشاعر حين أقدم على نظم تلك العمرية، وما يعتريه من الإحساس بالعجز والوهن عن توفية الفاروق حقه فيها، فالمقام أعلى من أي لغة ومناقبه أجل من أن يصورها بيان وأرقى من أن تجليها عظيم المعاني، ولكن يكفيه أنها مهداة إلى الفاروق، وقد استفتح شاعرنا عمريته بهذا المعنى، وحَسَناً ما صنع، فما أجمل هذا الاستفتاح، وما أروع هذا البدء ؛ لما فيه من نقل إحساس شاعرنا بالعجز في هذا المقام ولما أبدعته لغته من بديع القوافي.

ويزداد هذا البدء حسناً وجمالاً بملاحظة تلك الكناية الماتعة في الشطر الثاني من البيت الأول (أَنّي إِلى ساحَةِ الفاروقِ أُهديها)، وهي كناية عن نسبة، فواضح أن شاعرنا ترك إثبات صفة (الإهداء) إلى الموصوف (الفاروق)، وأثبتها لشيء يرتبط به وهو (ساحته)، ولو قال : إني إلى الفاروق أهديها، لكان الأسلوب من قبيل الحقيقة لا الكناية.

(١) لا هم :???للهم .

وتكمن بلاغة تلك الكناية في أنها كالقضية التي أثبتت بدليلها، فمعلوم أن صفة الإهداء لا تقوم بنفسها، بل لابد أن تقوم بغيرها، وغيرها في ظل هذا المقام لا يصلح للقيام بها، لأنه جماد (الساحة)، وهي مختصة بالممدوح فتعيَّن كون صاحب الصفة هو الذي يقوم بها ؛ لأنها من شأنه ومن خصوصياته، وفي هذا المسلك التعبيري تأكيد لنسبة تلك الصفة للفاروق من باب أولى، هذا فضلا عما أثارته من خيال بديع ونحن نرى تلك القوافي تحظى بشرف الحضور في ساحة الفاروق، وقد بيَّن الإمام عبد القاهر – رحمه الله – هذا الضرب من الكناية بقوله : " أنهم يرومون وصْفَ الرجل ومدْحَه، وإثباتَ معنًى من المعاني الشريفةِ له، فيَدَعونَ التصْريحَ بذلك، ويُكَنُّونَ عن جَعْلها فيه بِجَعْلها في شيءٍ يَشْتمِلُ عليه وَيتَلبَّس به، ويتوصَّلون في الجملة إلى ما أَرادوا من الإِثباتِ، لا من الجهةِ الظاهرةِ المعروفةِ، بل من طريقٍ يَخْفى، ومَسْلكٍ يَدِقُّ؟" (١).

وإيثار لفظ (الساحة) في هذا المقام لما يوحيه من سعة المكان، مما يزيد من فخار تلك المعاني، لاستيعابها هذا الحيِّز المكاني الشاسع، كما يُعْلي من إحساس شاعرنا بعظمة هذا المقام، ومن هنا جاء التأكيد بـ (أنى) مناسبا غاية المناسبة في نقل إحساس شاعرنا بتلك العظمة وأنها نابعة من قلبه وصميم نفسه.

ومن البيِّن في تلك الأبيات أن إحساس شاعرنا بعظمة هذا الموقف ممزوج برهبة شديدة خشية عدم القدرة على الوصول إلى ما يبرز خصال الفاروق ويجسِّد مناقب هذا الخليفة الراشد، ولذا نراه يقول في البيت الثالث :

(١) ?لائل?لإعجا? للإما? عبد?لقاهر : ٣٦ .

قَــد نــازَعَتنِيَ نَفســي أَن أَوَفّيهــا   وَلَـيسَ فـي طَـوقِ مِثلـي أَن يُوَفّيهـا

وإذا كان شاعرنا جعل التعبير الكنائي مسلكه في البيت السابق ليكشف عن مراده فهو يؤثر التعبير به مرة ثانية في هذا البيت بكنايةٍ من نفس نوع سابقتها مع ملاحظة أن الكناية السابقة جاءت في النسبة المثبتة، أما هذه فقد جاءت في النسبة المنفية، ومعلوم أن النسبة في تلك الكناية تكون إثباتا ونفيا[١].

وموطن الكناية في قوله (وَلَيسَ في طَوقِ مِثلي أَن يُوَفّيها) حيث كنى عن نفي قدرته على توفية الفاروق حقه في تجسيد سمات تلك الشخصية وإبراز مناقبها الرائعة بنفي ذلك عمن هو على أخص أوصافه وهو المراد بقوله : (مثلي) ؛ وذلك مبالغة في تأكيد نفي القدرة على التوفية عنه ؛ لأنها إذا انتفت عمن يماثله في صفاته لزم نفيها عنه، وذلك لعدم الفرق بينهما.

يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي في تقرير مثل تلك الكناية " وطريقة البلغاء أن لفظ (مثل) في الآية [٢] كلفظ (مثل) في قولك : مثلك لا يبخل، فالمراد منها نفي المثل عن ذاته بطريق نفي المثل عمن يكون مثله في صفاته ؛ لأنه إذا نفى المثل عمن يكون مثله في صفاته لزم نفيه عنه لعدم الفرق بينهما، وتقرير الكناية على هذا الوجه واضح لا تعقيد فيه كما في طريقة المتكلمين"[٣].

والكناية في البيت أبلغ من التصريح بقوله : (وليس في طوقي أن أو فيها) فالتعبير بها في ظل هذا المقام يفوق بكثير التعبير الحقيقي ؛ لأنها قدمت المعنى مصحوبا بالبينة والبرهان، فإذا كان العجز من نصيب من هُم على شاكلة شاعرنا، لغة وفصاحة وبراعة

---

(١) ينظر : مباحث في طر? علم?لبيا? ،? ? / ?فعت?سماعيل?لسو??ني : صـ ٤٢٦ ، ٢٠٠١ ? – ٢٠٠٢ ? .

(٢) يقصد قوله – تعالى - : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [?لشو? ? : ١١] .

(٣) بغية?لإيضا? ،?لشيخ / عبد?لمتعا??لصعيد? : ٣ / ١٨٤ ، مكتبة?لآ?? ? .

وأسلوبا، فشاعرنا كذلك، ليس انتقاصا في موهبته الشعرية، بل لسمو المقام وعظمة المتحدث عنه، ومن هنا اعترته هواجس التردد والحيرة، والتي كنى عنها في بدء البيت بقوله : (قد نازعتني نفسي) إذ يلزم من منازعة نفسه له، ترددها وحيرتها، وقد أبرزت تلك الكناية المعنى المقصود وأظهرته في صورة محسة، وضاعف من جمال تلك الكناية قيامها على تلك الاستعارة اللطيفة، حيث شُبِّهت نفس الشاعر بإنسان لديه القدرة على المراوغة والمنازعة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي قوله (نازعتني) وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وهي تعكس اضطراب الشاعر وشدة حيرته وإحساسه بالضعف وعدم القدرة على توفية المقام حقه، ولذا نراه يطلب العون والمدد من ربه – سبحانه – فيقول :

فَمُـر سَـرِيَّ المَعـاني أَن يُـواتِيَني فيهـا، فَـإِنّي ضَـعيفُ الحـالِ واهيهـا

فقد كنى بقوله (فَإِنّي ضَعيفُ الحالِ واهيها) عن إحساسه بالعجز في هذا المقام وشدة رهبته نظرا لعظم مكانة ممدوحه وعلو منزلته وجليل مناقبه، فهل ستسعفه اللغة في إظهار تلك المعاني ؟ وهل ستواتيه موهبته الشعرية في تجليتها ؟

فواضح أن شاعرنا لا يقصد حقيقة المعنى المراد من ضعف الحال، وإنما يريد ما وراءه أو كما يقول الإمام عبد القاهر : معنى المعنى، والذي أبان – رحمه الله – عنه بقوله : " وإذ قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: « المعنى »، و « معنى المعنى»، تعني بالمعنى المفهومَ من ظاهرِ اللفظِ والذي تَصِلُ إليه بغير واسطة

و"بمعنى المعنى"، أن تَعْقِل من اللفظِ معنًى، ثم يُفضي بكَ ذلكَ المعنى إلى معنى آخرَ " [1].

وتوظيف الشاعر لهذا التوكيد الذي تصدر جملته الكنائية بقوله (فإني) ليس مراعاة لحال المخاطب، بل هو مراعاة لحالته النفسية، ولذا صاغ كلامه مؤكدا لمَّا أحسه مؤكدا مقررا في نفسه، وهذا مما يتناغم مع عطاء تلك الكناية في الدلالة على مدى إحساس شاعرنا بالعجز في مثل هذا المقام.

ويبدو أن مثل هذا الإحساس كان الشعور الغالب على غير شاعرنا وهو يجسد مناقب أمثال هؤلاء الرجال العظام من سلف الأمة، ولذا نرى عبد الحليم المصري يسيطر عليه هذا الشعور في قصيدته البكرية فيقول :

وقفـــت ببـــاب الله والقـــول نـــافر فـأوقر لـي الصـديق منـه ركابيـا[2]

فواضح أن كلا الشاعرين يشعر بالعجز في مثل هذا المقام، فكلاهما في حضرة خليفة لرسول (ﷺ)، ومن أعظم رجال الأمة، نصرة لعقيدتها ورفعا للواء رايتها، ولذا كان الشعور بالعجز وعدم توفية المقام حقه حليفهما، وكان إفصاحهما عن ذلك في مطلع مطولتيهما من المناسبة بمكان.

وقد استعان كلا الشاعرين بالأسلوب الكنائي في الدلالة على هذا المعنى، فقول المصري : (والقول نافر) كناية عن الإحساس بالعجز وعدم القدرة على امتلاك ناصية البيان في الوصول إلى ما يريد.

---

(١) ?لائل?لإعجا? للإما? عبد?لقاهر : ٢٦٣ .
(٢) ?يو? عبد?لحليم?لمصر? : ٢ / ٣٠٢ ، طبع مطابع ??? ليوسف ، ?لهيئة?لعامة لقصو??لثقافة .

وإذا كان المصري جعل القول نافرا في الدلالة على هذا المعنى، فقد كان حافظ أعمق تعبيرا في الدلالة عليه مع استخدامه لنفي الأسلوب البياني الذي سلكه المصري، فضعف الحال أدل على الإحساس بالعجز، وذلك لأنه لا يقتصر على القول فحسب – كما عند المصري – بل يشمل الجانب الشعوري والنفسي أيضا.

وإذا كان المصري أضفى على كنايته ثوبا من الجمال بتعانقها مع التصوير بالاستعارة المكنية حيث شبه القول في استعصائه على تجسيد مناقب الصديق بالناقة الشرود، فلم يخل الأمر عند شاعر النيل – أيضا – حيث شبه (الحال) بالشيء الحسي الذي أصابه الوهي، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية كذلك.

ومما يؤكد عمق الشعور بالعجز بكل ألوانه البياني والنفسي عند شاعرنا، أنه عندما لجأ إلى مصدر يستمد منه القوة والعون على تلك المهمة الجليلة وهذا الموقف العظيم، نراه يلجأ إلى ربه ضارعا إليه راجيا منه ذلك، إذ يقول في البيت الثاني من تلك المقطوعة :

لاهُـمَّ، هَـب لـي بَيانـاً أَسـتَعينُ بِـهِ عَلـى قَضـاءِ حُقـوقٍ نـامَ قاضـيها

بينما يلجأ المصري إلى أبي بكر الصديق ذاته ملتمسا منه أن يفيض عليه بالقوافي، ويجري على لسانه الحكم والمعاني فيقول في مطلع بكريته :

أفضـني أبـا بكـر علـيهم قوافيـا وأمطـر لسـاني حكمـة ومعانيـا[1]

وفي النهاية لا أملك إلا أن أضرع إلى الله (ﷻ) بالدعاء بالرحمة والمغفرة لكلا الشاعرين جزاء ما قدما للعربية والإسلام، وإلى المقطوعة الثانية من عمرية شاعر النيل.

---

(١) ?لسابق : ٢ / ٣٠٢ .

الكناية في تصويره لأثر مقتل الفاروق (رحمه الله) على الأمة

بعد أن أبان شاعرنا في مطلع عمريته عن إحساسه بالعجز من أن يوافي مقام سرد مناقب الفاروق حقها وتضرَّع إلى ربه – سبحانه – أن يسعفه بالبيان اللائق والناصع، نراه يعرض لأخطر موقف تعرض له الفاروق وهو حادث مقتله، فقد كان خطبا جليلا كان له أثره على الأمة كلها، ونراه يصور هذا الموقف قائلا :

مَـولى المُغيـرَةِ لا جادَتـكَ غادِيَـةٌ ... مِـن رَحمَـةِ اللهِ مـا جـادَت غَواديهـا
مَزَّقـتَ مِنـهُ أَديمـاً حَشـوُهُ هِمَـمٌ ... فـي ذِمَّـةِ اللهِ عاليهـا وَماضـيها
طَعَنـتَ خاصِـرَةَ الفـاروقِ مُنتَقِمـاً ... مِـنَ الحَنيفَـةِ فـي أَعلـى مَجاليهـا
فَأَصـبَحَت دَولَـةُ الإِسـلامِ حـائِرَةً ... تَشـكو الوَجيعَـةَ لَمّـا مـاتَ آسـيها
مَضـى وَخَلَّفَهـا كَـالطَودِ راسِـخَةً ... وَزانَ بِالعَـدلِ وَالتَقـوى مَغانيهـا
تَنبـو المَعـاوِلُ عَنهـا وَهـيَ قائِمَـةٌ ... وَالهـادِمونَ كَثيـرٌ فـي نَواحيهـا
حَتّـى إِذا مـا تَوَلّاهـا مُهَـدِّمُها ... صـاح الـزَوالُ بِهـا فَانـدَكَّ عاليهـا

وقد كان للكناية دورها الرائد في تصوير تلك الفجيعة في الأبيات السابقة، وقد ابتدأها شاعرنا بالإشارة بالأسلوب الكنائي إلى هذا القاتل المجرم وذلك في قوله (مَولى المُغيرَةِ) وهو كناية عن موصوف، إذ يراد به أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وهو فارسي الأصل، وكان قد شكا إلى عمر ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة، ورجاه في تخفيفه فلم يجبه عمر إلى ما طلب، فأسرها في نفسه، وتحيَّن به الفرص، حتى طعنه بخنجره وهو قائم يصلي [1].

(١) ينظر :?لبد?ية ??لنهاية ، لابن كثير : ٧ / ١٣٧ ، ???لفكر?لطبعة :?لأ?لى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ ? .

وقد اختار حافظ تلك الصفة دون غيرها في الدلالة على موصوفه ؛ لأنها أدل على إهانته وتحقيره، فهو لا يتعدى مولى من الموالي استطاع بجرمه وحقده الدفين أن يقضي على رجل من أعظم رجال الأمة، ويتناغم مع دلالة تلك الكناية ما أفاده النداء المحذوف أداته من الدلالة على الإسراع في الإهانة والتحقير والذم وتقديره : يا مولى المغيرة.

وهذه الكناية بالرغم مما أوحت به من لفتة ذكية لم تغب عن ذهن شاعرنا حين نظمها إلا أننا لا نستشعر فيها الإمتاع الموجود في النوعين الآخرين (الكناية عن نسبة والكناية عن صفة)، وذلك لقربها من المعنى الحقيقي ولذا يقرر د / أبو موسى أن هذا النوع " ليس فيه ما في القسمين الأولين من

الاعتبارات البلاغية، وإن كان لا يخلو من دقائق لطيفة " [1] .

ويزداد حنق شاعرنا على هذا المجرم الآثم بمواجهته بقوله : (لا جادَتكَ غادِيَةٌ) وهو كناية عن بعده عن رحمة الله وانقطاع الخير عنه.

والجملة السابقة وإن كانت خبرية لفظا فهي إنشائية معنى ؛ إذا المعنى على سبيل الدعاء عليه بألا ينعم بخير أو تناله رحمة، وإنما آثر شاعرنا التعبير بالخبر في موضع الإنشاء إظهارا لشدة حرصه على تحقق وقوع هذا الأمر، مما يكشف عن غاية بغض شاعرنا له، وما تمتلئ به نفسه من غيظ وحنق على هذا المجرم الآثم.

(١) ?لتصوير?لبياني (???سة تحليلية لمسائل?لبيا?) ، ? / محمد?بو موسى : ٤١٦ ، م ك تبة ?هبة ، ? ٤ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ ? .

وبالإضافة إلى هذا التغاير الأسلوبي الذي سلكه شاعرنا نلحظ أنه قد أضفى على تلك الكناية هذا التصوير الخلاب والذي ضاعف من جمال الأسلوب وازدادا به النظم حسنا، حيث كان عماد تلك الكناية هذه الاستعارة التمثيلية الماتعة حيث شبه انقطاع الخير والرحمة عن غلام المغيرة بن شعبة، بهيئة من حُرِم من مطر سحابة محملة بالخير، ثم استعار هيئة المشبه به لهيئة المشبه، وذلك مبالغة في التصوير وتأكيدا للمعنى بإظهاره بتلك الصورة المحسوسة، ونلحظ أن شاعرنا قد استقى هذا التصوير الماتع من عالم الطبيعة الخلاب، مما يدل على سعة خياله ورهافة حسه في تصويره لمعانيه.

ثم يشير شاعرنا إلى جرمه الآثم فيقول :

مَزَّقــتَ مِنــهُ أَديمــاً حَشــوُهُ هِمَــمٌ فــي ذِمَّــةِ اللهِ عاليهــا وَماضــيها

وقد اشتمل البيت على كنايتين، الأولى في قوله : (**مَزَّقتَ مِنهُ أَديماً**) كناية عن مقتل الفاروق، وإنما آثر شاعرنا الأسلوب الكنائي في الدلالة على هذا المعنى ؛ لما يوحي به من تبشيعٍ لهذا الفعل الغادر، وما يظهره من تجسيدٍ للعنف الذي صاحبه.

ومما يبالغ في الذم والتحقير لهذا القاتل المجرم ما أوحى به التعبير بالمفعول به (أديما) فما أصاب إلا جلده، أما الروح والقلب فلم ينل منهما شيئا، إشارة إلى أن الفاروق كان ذا روح وثابة، وقلب حي، وعقل يقظ، ونفس عالية تبغي المعالي وتنشد الفضائل، ولذا يصف (أديما) بجملة (حَشوُهُ هِمَمٌ) وهي كناية أخرى عن : علو الهمة ورفعة القدر، وعظم الشأن، فما كان الفاروق بالخانع الذليل والخاضع المستكين الذي يقبل بما دون المعالي من جليل الأعمال وعظيم الخصال.

وتبدو دقة شاعرنا في هذا التقييد (في ذمة الله) فما امتاز به من علو الهمة لم يكن أبدا في سبيل الهوى أو حب النفس، أو من أجل دنيا يؤثرها، وإنما كان في سبيل نصرة الحق ورفعة الإسلام، ولذا نراه يتبع الكناية السابقة بكناية أخرى تلتقي معها في معناها، وذلك في قوله (عاليها وماضيها) وهي كناية واصفة لعمر بالرفعة والمضاء، فما كان عمر ليقف عن الهمم الصغيرة، بل كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال وعظائم المهام.

وتتأتى هاتان الكنايتان في مقابلة الكناية السابقة عن أبي لؤلؤة، لتعقد موازنة بين أصحاب النفوس الدنيئة والأفعال المشينة وأصحاب الهمم العالية والغايات النبيلة والأعمال الجليلة.

وما أعظم خسارة الأمم حين تفقد أمثال هؤلاء الرجال، وما أشد ما ينزل بها من محن وبلاء، ولذا يقول شاعرنا كاشفا عما ترتب على فقده – رحمه الله – :

فَأَصبَحَت دَولَةُ الإِسلامِ حائِرَةً تَشكو الوَجيعَةَ لَمّا ماتَ آسيها

والبيت بتمامه كناية عن كثرة الخطوب والمحن التي حلت بالأمة بعد فقده (ﷺ)، وقد عدل شاعرنا عن تلك الحقيقة إلى الأسلوب الكنائي ليقدم لنا المعنى ومعه دليل ثبوته، مما يجعله متمكنا في النفس فمما لاشك فيه " أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينة "[1] .

(١) ?لإيضا ? : ٥ / ١٧٩ .

هذا فضلاً عما اشتملت عليه تلك الكناية من خلال نظمها من تصوير خلاب وتشخيص معجب، حيث صوَّرت دولة الإسلام بالمرأة الحائرة التي تشكو وجيعتها وخطبها لما مات من يعول أمرها ويسوس حالها، وقد أبرزت تلك الاستعارة المعنى المقصود في صورة محسة، تأكيداً للمعنى الذي يرمى إليه شاعرنا من وراء الأسلوب الكنائي، ومبالغة في دور الفاروق البارز في استقرار أمر الأمة، وما نعمت به في عهده من رخاء وعدل وأمان وأمن.

وتأمل دلالة الفعل (فأصبحت) وما فيه من إشارة إلى هذا التحول المفاجئ الذي أصاب الأمة، وإن كنت أرى أنه لو قال " فأمست " لكان أوفق للمعنى لتتلاءم الظلمة التى تعم الكون فى المساء مع الظلمة التى أصابت الأمة بمقتل الفاروق، ولعل الذى دعاه إلى ذلك هو المحافظة على الوزن، ثم تأمل ما توحيه الفاء من معاني السرعة، ثم انظر إلى دلالة التعبير بـ (دولة الإسلام) فالخطب جلل والمصاب عظيم كان له أكبر الأثر على الأمة كلها، كما تأمل هذا التنوع في الصيغ بين الاسمية والفعلية، فاسم الفاعل (حائرة) يدل على الثبوت والدوام، بينما نجد معاني التجدد والاستمرار المناسبين لتكرار التشكي وكثرة الوجائع في الجملة المضارعة التي تلي هذا الوصف (تشكو الوجيعة)، وذلك لأن " موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء "(١) .

ويزداد النظم حسناً وروعة بتعانق الكناية عن موصوف مع تلك الكناية المركبة في البيت كله، وذلك في لفظ (آسيها) وهي كناية عن الفاروق – رحمه الله

(١) ?لائل?لإعجا?: ١٧٤ .

- ويتصاعد الحسن بتعانق المجاز اللغوي مع تلك الكناية المفردة فلفظ (آسيها) بمعنى (طبيبها)، يراد به الفاروق، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وتكثيف الصور في هذا المقام فيه إيحاء واضح بحسن رعايته (ﷺ)لشئون الأمة، وقيامه بأمرها خير قيام، ولهذا ساعدت الصياغة في الكشف عن ذلك بهذا التصوير البياني المتآزر.

وتظهر تلك السمة البيانية بجلاء ووضوح في قوله بعد ذلك في البيتين التاليين :

مَضى وَخَلَّفَها كَالطَودِ راسِخَةً ... وَزانَ بِالعَدلِ وَالتَقوى مَغانيها

تَنبو المَعاوِلُ عَنها وَهيَ قائِمَةٌ ... وَالهادِمونَ كَثيرٌ في نَواحيها(1)

والشطر الأول من كلا البيتين كناية عن معنى واحد، وهو قوة الدولة الإسلامية وثباتها واستقرارها في عهد الفاروق (ﷺ).

وواضح تعانق الكناية في الشطر الأول مع التشبيه المكتمل الأركان (وخلفهاكَالطَودِ راسِخَةً) وفيه تأكيد لقوة الدولة الإسلامية، وإيحاء بالمفارقة بين حال تلك الدولة قبل مقتل الفاروق، وما آل إليه أمرها بعد ذلك، كما تكشف الأبيات بعد.

(1) ألحظ تناقضا واضحا من الشاعر ، ففى هذين البيتين يشير إلى أن عمر (ﷺ) ترك دولة الإسلام راسخة قوية لايستطيع أحد أن ينال منها شيئا ، وفى البيت السابق عليهما نراه يشير إلى أنها أصبحت حائرة تشكو الوجيعة بعد مقتله .

كما تتآزر الاستعارة التمثيلية مع الكناية الواقعة في البيت الثاني (تَنبو المَعاوِلُ عَنها وَهيَ قائِمَةٌ) حيث شبهت هيئة الدولة الإسلامية في ثباتها وقوتها بهيئة البنيان الذي يتأبى على الهدم والانهيار، في حين يطمح الكثيرون في إزالته ومحوه.

وهذا التعانق بين التصويرين مما يُجلي بوضوح قوة الدولة الإسلامية في زمن الفاروق، وأنها بلغت أقصى صورها وحققت أعظم أمجادها.

والكناية في الموطنين السابقين من البيِّن أنه لا يمكن معهما إرادة المعنى الحقيقي نظرا لاستحالته، وإنما آثر الشاعر طريق الكناية على الحقيقة فيهما ؛ ليقدم لنا المعنى مشفوعا بدليله مصحوبا ببرهانه، ففرق بين أن يقال : مضى وخلفها قوية ثابتة، وبين ما جاء عليه النظم، فلا شك أن ما جاءت عليه الصياغة أبلغ في الإقناع وأثبت للمعنى في العقل، وليس معنى أبلغية الكناية – هنا – أنها زادت في المعنى ذاته، بل المراد أنها زادت في إثباته بتقديم الأدلة عليه، يقول الإمام عبد القاهر : " أما (الكنايةُ) فإنَّ السببَ في أنْ كانَ للإثباتِ بها مزيةٌ لا تكونُ للتَّصريح، أنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلمُ إذا رجعَ إلى نفسهِ، أَنَّ إثباتَ الصفةِ بإثباتِ دَليلِها، وإِيجابَها بما هُو شاهِدٌ في وجودِها، آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فثبتها هكذا ساذَجاً غُفْلاً، وذلك أنَّكَ لا تدَّعي شاهدَ الصفةِ ودليلهَا إلاَّ والأَمرُ ظاهرٌ معروفٌ، وبحيثُ لا يُشَكُّ فيه، ولاَ يُظَنُّ بالمُخْبر التجوُّزُ والغَلَطُ "[1].

وبالعودة إلى التأمل في نظم تلك الكناية نجد براعة الشاعر في نسجها بما يخدم المعنى الذي يقصده، فالفعل (تنبو) يفيد ارتداد تلك المعاول على أصحابها

(١) ?لائل?لإعجا? : ٧٢ .

واستعصاء تلك الدولة أمامها، والتعبير بصيغة الجمع (المعاول) مما يرسخ ثبات تلك الدولة ويضفى عليها مزيدا من القوة، وما أجمل التعبير بتلك الجملة الحالية (وهي قائمة) وكأنها شامخة فتية أبية، تقهر كل طرق الهدم وتتحدى كل وسائل الانهيار.

ولا تخفى تلك الكناية الماتعة في قوله (وَزانَ بِالعَدلِ وَالتَقوى مَغانيها)، وهي كناية عن نسبة حيث نسب العدل والتقوى إلى منازل تلك الدولة قاصدا بذلك ثبوتهما إلى دولة الإسلام نفسها، تأكيدا ومبالغة في إرساء الفاروق لهذين المظهرين من مظاهر تلك الدولة.

وأعظِم بهذين المظهرين حين يسودان الأمم، فبالعدل تقوم الأمم، فهو أساس الملك، وعماد الحكم، وقوام الأمن، ومبعث استقرار أي أمة، ومصدر هناءتها وألفها وارتباطها، والتقوى رأس كل شيء، وجماع كل خير، ولذلك كانت هي وصية الله للأولين والآخرين من خلقه، وهي وصية النبي (ﷺ) لجميع أمته، كما كانت وصية سلفنا الصالح لبعضهم البعض، ومن هنا حُقَّ للصياغة في البيت أن تقدمهما تأكيداً لأهميتها في بقاء واستقرار الأمم.

ومما يزيد من تألق تلك الكناية السابقة تعانقها مع تلك الاستعارة المكنية الماتعة، حيث شبِّهت منازل تلك الدولة بالعروس التي زيِّنت بأبهى أدوات الزينة والجمال ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الفعل (زان)، وشاعرنا بهذا المسلك التصويري يفتح مجالا أرحب للتخيّل، مما يؤكد المعنى الذي يقصده ويزيده قوة ومبالغة.

وتتجلي الكناية عن صفة في قوله : (وَالهادِمونَ كَثيرٌ في نَواحيها) وهي كناية عن كثرة المتربصين بتلك الدولة الذين يبغون هدمها وإضعافها وإذلالها وإذهاب قوتها، وما كانت لتلك المعاني وغيرها الكثير ليظهر لو سلك الشاعر أسلوب التصريح، ولذا كان الإيجاز من أبرز ملامح تلك الكناية السابقة.

وبمعاودة التأمل فيما سبق من كنايات في تلك المقطوعة يتضح جليا أنها توافرت كلها وتكاتفت مع غيرها من الفنون البلاغية في إبراز دور الفاروق في تثبيت دعائم دولة الإسلام وجهده الواضح في نصرة هذا الدين وإعلاء كلمته، وذلك كله في أسلوب ماتع ومعان سامية، وإلى المقطوعة الثالثة من تلك العمرية لنرى كيف تألقت الكناية في الكشف عما آلت إليه الدولة الإسلامية بعد مقتل الفاروق (ﷺ).

الكناية في تصويره لما آل إليه حال الدولة الإسلامية بعد مقتل الفاروق (ﷺ)

بعد أن تحدث شاعرنا عن مقتل الفاروق (ﷺ) وبيَّن كيف ترك الأمة قوية فتية تتأبى على الهدم والانهيار، كان من المناسب أن يعرج بعد ذلك إلى تصوير ما آل إليه حالها من الانحطاط والضعف والذل والهوان، وذلك بعد سقوط دولة الخلافة الراشدة، وبخاصة بعد انتقال سلطة الخلافة والقيادة بعد ذلك إلى غير أبناء الجنس العربي الذين تعصبوا لجنسهم ولغتهم على حساب الإسلام ولغته، ولذا نراه يقول :

واهاً عَلى دَولَةٍ بِالأَمسِ قَد مَلَأَت ... جَوانِبَ الشَرقِ رَغداً مِن أَياديها
كَم ظَلَّلَتها وَحاطَتها بِأَجنِحَةٍ ... عَن أَعيُنِ الدَهرِ قَد كانَت تُواريها
مِنَ العِنايَةِ قَد ريشَت قَوادِمُها ... وَمِن صَميمِ التُقى ريشَت خَوافيها
وَاللَهِ ما غالَها قِدماً وَكادَ لَها ... وَاِجتَثَّ دَوحَتَها إِلّا مَواليها
لَو أَنَّها في صَميمِ العُربِ قَد بَقِيَت ... لَما نَعاها عَلى الأَيّامِ ناعيها
يا لَيتَهُم سَمِعوا ما قالَهُ عُمَرٌ ... وَالروحُ قَد بَلَغَت مِنهُ تَراقيها
لا تُكثِروا مِن مَواليكُم فَإِنَّ لَهُم ... مَطامِعاً بَسَماتُ الضَعفِ تُخفيها

وقد تألقت الكناية في الأبيات الثلاثة الأولى كاشفة عن دور الدولة الإسلامية وكيف كان لها الفضل على العالم كله، وقد اشتمل البيت الأول منها على عدة كنايات.

فقوله (واها) كناية عن ضعف تلك الدولة وما آل إليه حالها من ذل وامتهان وتخليها عن دور القيادة والريادة.

وقد جاءت تلك الكناية مصحوبة بدليلها مشفوعة ببرهانها، فتحسر الشاعر على حال تلك الدولة وما آل إليه أمرها أكبر دليل وأقوى برهان عما سادها من ضعف وامتهان.

وقد وُفِّق شاعرنا في توظيف العديد من العناصر التعبيرية لترسم إطارا يبرز تلك الكناية، فالتعبير بتلك الصرخة المدوية في (واها) ينبئ عن نفس يملؤها التحسر والحزن على مآل تلك الدولة التي كانت قائدة للأمم ذات يوم محققة الزعامة عليها في شئون الدين والدنيا، فالكلمة بجرسها ولفظها تكشف عن فجيعة الشاعر وعظيم رثائه.

وتأمل تنكير (دولة) وما ينبئ به من معاني التعظيم والتفخيم، كما لا تغيب عنك دلالة هذا القيد (بالأمس)، وهو ظرف لا يراد به حقيقة معناه من اليوم الذي قبل اليوم الحاضر، بل هو كناية عن موصوف، وهو الماضي القريب في حياة تلك الدولة يوم كانت صاحبة السيادة والريادة والتوجيه للعالم من حولها وذلك عندما جعلت الدين إيمانا ونظاما، وعبادة ومعاملة، وعقيدة وشريعة.

كما تتأتى الكناية عن صفة والتي تولدت من رحم تلك الكناية المركبة من البيت كله وذلك في قوله (قَد مَلَأَت جَوانِبَ الشَرقِ رَغداً مِن أَياديها) وهو كناية عن كثرة عطائها ووفرة نعيمها وعظيم فضلها على العالم من حولها، واقتصار شاعرنا على (جوانب الشرق) من باب التغليب، وذلك لأن فضل الحضارة الإسلامية لم يكن قاصرا على الشرق وحده، بل عم دول الغرب أيضا، فقد امتدت

رقعة الإسلام شرقا وغربا إلى أبعد ما وصلت إليه تقريبا، وصل الإسلام إلى الصين شرقا، وإلى فرنسا غربا، بل توغل في فرنسا وجنوب سويسرا ذات يوم.

ولك أن تتأمل دلالة التنكير في (رغدا) وما يوحيه من كثرة الخير ووفرة النعيم، والتي أنبأ عنها – أيضا – المجاز المرسل الواقع في لفظ (أياديها) وعلاقته (السببية) إذ يراد بها النعم، وفي صيغة الجمع ما يوحي بتنوعها، فقد علمت تلك الحضارة الدنيا كلها العفة والطهارة والنظافة والقوة والإيجابية والبناء والتنمية والعدل والكرامة واليقين والإيمان والقدرة على تنمية الحياة ورقيها..... إلخ تلك المبادئ والمثل الإنسانية الراقية.

وتتجلى براعة شاعرنا من خلال امتداد التصوير بقوله :

كَـــم ظَلَّلَتهـــا وَحاطَتهـــا بِأَجنِحَـــةٍ عَن أَعيُنِ الدَهرِ قَد كانَت ثُواريها

والشطر الأول من البيت كناية عن صفة الأمن والأمان الذي نعمت به العديد من دول الشرق في ظلال الدولة الإسلامية، وهي كناية رائعة ماتعة وضاعف من جمالها تعانقها مع استعارتين مكنيتين في غاية الروعة والحسن.

الأولى : في الضمير العائد على (دولة) في لفظ (ظللتها) حيث شبهت الدولة الإسلامية بالشجرة الوارفة الظلال، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو : (التظليل).

والثانية : في الضمير العائد عليها في قوله : (وحاطتها بأجنحة) حيث شبهت بالطائر الخافض لجناحيه، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (إحاطة الجناح).

وبهذا الصنيع علت قيمة تلك الكناية وظهر فضلها على الحقيقة، حيث أوضحت المعنى (الأمن والأمان) مشفوعا بدليله، مصحوبا ببرهانه، وهو التظليل وإحاطة الأجنحة، مما أظهر مراد الشاعر في صورة محسة مرئية، تأخذ بلُب كل سامع، وتستولي على عقل كل قارئ.

وفي الشطر الثاني من البيت تأتي كناية أخرى في قوله (أعين الدهر) وهي كناية عن نكبات الدهر ومصائبه.

وهذا التعبير الكنائي لاشك أنه يفوق بكثير التعبير الصريح كأن يقال : وحاطتها بأجنحة عن مصائب الدهر، وذلك لأن المعنى الكنائي لم يفهم من صريح هذا اللفظ، وإنما من لفظ دال على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل التابع أبان عن المتبوع [1]، فضلا عما اشتمل عليه نظمها من تصوير رائع قائم على تشخيص الدهر، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

وبهذا تتجلى بلاغة تلك الصور البيانية المتعددة وبخاصة الكنائي منها في إبرازها لهذا الدور الرائع الذي لعبته الدولة الإسلامية في حفظ تلك الدول التي

(١) ينظر : نقد ?لشعر لقد?مة بن جعفر : ١٥٧ – تحقيق : ? / محمد عبد خفاجي ، م كتبة ?لكليا ??لأ?هرية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ ? .

أشرقت عليها شمس الإسلام من المصائب والنكبات التي طالما أضمرها الأعداء في نفوسهم حتى حانت لهم الفرص فانقضوا عليها إضعافا وإذلالاً، ولذا نرى شاعرنا يكشف عنهم قائلا في عمريته :

وَاللهِ مـا غالَهـا قِـدماً وَكـادَ لَهـا وَاِجتَـثَّ دَوحَتَهـا إِلّا مَواليهـا

والبيت بتمامه كناية عن نكبة الدولة الإسلامية على أيدي الموالي فهم الذين قتلوا عمر (ﷺ) وكانوا سببا في إسقاط الدولة الأموية وإضعاف الدولة العباسية حتى آل بها الأمر في النهاية إلى السقوط.

ومن الواضح أن صياغة البيت كله هي التي وضعت قواعد تلك الكناية فهي كناية مركبة، بالرغم من قربها، حيث لا تتطلب عناء في استخراجها، وقد أشار ابن الأثير إلى قوة العلاقة بين المعنى الكنائي واللفظ المكني به في الكناية المركبة عن المفردة فقال : " الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهية، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة، ألا ترى إلى قولهم: "فلان نقي الثوب"، وقولهم : "اللمس" كناية عن الجماع، فإن نقاء الثوب أشد مناسبة وأوضح شبها ؛ لأنا إذا قلنا : نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ، ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة، وإذا قلنا : " اللمس كناية عن الجماع " لم يكن بتلك الدرجة في قوة المشابهة "[(١)].

---

(١) ?لمثل ?لسائر في ?? ? ?لكاتب ??لشاعر لابن ?لأثير : ٣ /٥٩ ، تصحيح ?تنقيح : محمد ?لصبا? ، ?لطبعة ?لعاشر? ، ?لقاهر? ، ١٢٨٢ هـ .

وكعادة شاعرنا استطاع أن يوظف عناصر القول في البيت توظيفا فنيا ليكشف عن معناه الكنائي، فارتقى التعبير إلى قمة مراتب الجمال والحسن، تأمل دلالة القسم (والله) والقسم من أقوى طرق التوكيد، والمعنى الذي يتحدث عنه شاعرنا جعل هذا القسم واقعا موقعه الأمثل، والتعبير بالفعل (غالها) فيه إيحاء بوحشية القضاء والنيل من تلك الدولة، والتعبير بالفعل (كاد لها) فيه إيحاء واضح بالمكر والخداع، كما أن الفعل (اجتث) يوحي بمادته وجرسه بالاستئصال التام وقوة السقوط.

وما أجمل التعبير بلفظ (دوحة) في هذا السياق، فالدوحة تعني الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة، وهذا مما ينبئ عن شدة تحسر الشاعر على الماضي المشرق والتليد لتلك الدولة.

كما جاء القصر بطريق النفي والاستثناء في البيت ملائما لنفسية الشاعر وما بداخله من حزن وألم، فمن المعلوم أن هذا الطريق من طرق القصر " لا يكون غالبا إلا في المقامات العنيفة المستوغزة، جهيرة النبرة، قوية الوقع، حيث تتشابك مواقف التأثير الوجداني مع الإقناع العقلي "[1].

وتتوالى الكنايات، ففي البيت الخامس :

لَو أَنَّها في صَميمِ العُربِ قَد بَقِيَت لَما نَعاها عَلى الأَيّامِ ناعيها

(١) علم ?لمعاني ، ? / صبا ? عبيد ???? : ٢ / ٥٩ – مطبعة ?لتر كي بطنطا – ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ ? .

ونرى الكناية عن موصوف في قوله : (صميم العرب) كناية عن العرب الخُلَّص، والتعبير الكنائي في البيت له دلالته على ثقافة الشاعر الواسعة ووقوفه على المراحل التي مرت بها الدولة الإسلامية قوة وضعفا، وأن المسلمين لم يضعفوا ماديا وأدبيا، وثقافتهم لم تنطفئ في مدائن الإسلام إلا يوم أن نهض الجنس التركي بالخلافة الإسلامية، وأشرف على مستقبل المسلمين في البلاد التي فتحوها، مما آل بهم في النهاية إلى التعصب لتركيتهم لغة ودماً.

وبهذه اللفتة الذكية من شاعرنا نراه يربط بين مقتل الفاروق وهو الحدث الأهم الذي جعله منطلق أبياته، وبين ما آل إليه حال أمته وما أصابها من ضعف وهوان مما جعلها مصدر رثاء كل ناع، وقد أشار إلى هذا المعنى في الشطر الثاني، وذلك في قوله : (لما نعاها على الأيام ناعوها) وهو كناية عن سقوط تلك الدولة وضعفها حيث أصابها المرض والشيخوخة آنذاك.

وتظهر بلاغة تلك الكناية السابقة في إبرازها لهذا المعنى الكنائي مصحوبا بدليله مقرونا ببرهانه، وهو نعي الناعين لها ؛ إذ يلزم من نعي الناعين لها أنها أضحت في عداد الموتى، وهذا مما لاشك يقوي المعنى ويؤكده.

وهذا التعبير الكنائي يفوق كثيرا التعبير العادي، كأن يقال : لمَا ضعفت وسقطت، وذلك لما تشتمل عليه الكناية من تصوير رائع ماتع قائم على الاستعارة المكنية، حيث شبِّهت تلك الدولة بالميت الذي يرثيه أهله ويبكونه، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (النعي).

ثم يشيد شاعرنا بالفاروق (ﷺ) مبرزا حنكته واستشرافه لما يحيط بتلك الدولة من مخاطر وما يمكن أن تتعرض له من نكبات، فيقول متحسراً :

يـا لَيـتَهُم سَـمِعوا مـا قالَـهُ عُمَـرٌ وَالـروحُ قَـد بَلَغَـت مِنـهُ تَراقيهـا

والشطر الثاني من البيت كناية عن دنو أجله، وهي كناية قريبة، تتجلى فيها ثقافة الشاعر الإسلامية، إذ يظهر فيها التأثر الواضح بالبيان القرآني، وذلك في قوله – تعالى – : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ صَدَقَ﴾[1].

والتعبير عن دنو الأجل ببلوغ الروح تراقيها أبلغ في تصوير حرص عمر (ﷺ) على نصح أمته من خطر أن يتغلغل الموالي في شئون الدولة، فتكون قبضتها في أيديهم، وذلك لأن بلوغ الروح التراقي أدل على النصح، فالإنسان من شأنه أن يوصى و ينصح بأهم ما يبغيه عند دنو أجله وهذا المعنى لا نلمحه إذا جاء التعبير صريحا فيقال : وقد قرب موته.

وتأتي نصيحة الفاروق في نهاية تلك المقطوعة :

لا تُكثِـروا مِـن مَـواليكُم فَـإِنَّ لَهُـم مَطامِعـاً بَسَـماتُ الضَـعفِ تُخفيهـا

والكناية في قوله : (بَسَماتُ الضَعفِ) وهي كناية عن صفة الغدر والمكر والخيانة.

وفي إضافة (بسمات) إلى (الضعف) لفتة ذكية من شاعرنا، إذ تكشف عن انعدام مؤهلات القيادة لدى الموالي من العلم والعقل المستنير والقدرة على الريادة

(١) سو??لقيامة ،?ية : ٢٦ .

والقيادة مما جعلهم يُعَوِّضونَ نقصهم بتلك البسمات التي تضمر كل شر وحقد ورغبة وطمع في الاستيلاء على سلطة البلاد ومقاليد أمورها، وغير ذلك من الأغراض الدنيئة والتى عبر عنها بلفظ (مطامعا) بصيغة الجمع، وقد أبان التوكيد فى قوله (فإن)، وكذلك تقديم الخبر (لهم) عن شدة تحذير الفاروق منهم.

وورود تلك الكناية بعد ما سبقها من كنايات ورود في غاية المناسبة، حيث تكشف عن السبب المباشر لما آل إليه مصير تلك الدولة، مما يكشف عن فطنة الفاروق والتي أبانت حجب المستقبل أمام عينيه.

الكناية في تصوير إسلامه (ﷺ)[1]

لم يَفُت على شاعرنا أن يسجِّل في عمريته أعظم حدث في حياة تلك الشخصية الفذة، بل في تاريخ التحول في مسيرة الدعوة الإسلامية من الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العزة، وهو حادث إسلامه (ﷺ)[2].

---

(١) أرى أن هذا المقطع كان الأنسب أن يجعله الشاعر المقطع الثانى فى تلك العمرية ، ولعله خالف هذا الترتيب نظرا لما يملأ نفسه من حزن بسبب فقد عمر (رضى الله عنه) مما جعله يقدم الحديث عن مقتله على باقى المعانى الآخرى فى تلك العمرية.

(٢) ينظر قصة ?سلامه في : ?لرحيق ?لمختو? للشيخ / صفي ?لرحمن ?لمبا?ك فو? ? : ٨٩ – ٩٢ ، ? ١ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ ? .

ومن المتعارف عليه في شخصية الفاروق قبل إسلامه حدة الطبع وفرط العداء لرسول الله (ﷺ)، والأبيات – محل الدراسة – تحكي هذا العداء، وتبين كيف هداه الله إلى نعمة الإسلام، وما ترتب على ذلك من عز وشرف للمسلمين وانتصارٍ للدعوة، ونصرة للحق.

يقول حافظ :

رَأَيــتَ فــي الــدينِ آراءً مُوَفَّقَــةً ... فَــأَنزَلَ اللّهُ قُرآنــاً يُزَكّيهــا
وَكُنــتَ أَوَّلَ مَــن قَــرَّت بِصُــحبَتِهِ ... عَــينُ الحَنيفَــةِ وَاِجتــازَت أَمانيهــا
قَد كُنتَ أَعدى أَعاديها فَصِرتَ لَها ... بِنِعمَــةِ اللَهِ حِصــناً مِــن أَعاديهــا
خَرَجتَ تَبغي أَذاها في مُحَمَّدِها ... وَلِلحَنيفَــةِ جَبّــارٌ يُواليهــا
فَلَــم تَكَــد تَســمَعُ الآيــاتِ بالِغَــةً ... حَتّى انكَفَأتَ تُناوي مَن يُناويها
سَمِعتَ (سورَةَ طَهَ) مِن مُرَتِّلِها ... فَزَلزَلَت نِيَّةً قَد كُنتَ تَنويها
وَقُلــتَ فيهــا مَقــالاً لا يُطاوِلُــهُ ... قَولُ المُحِبِّ الَّذي قَد باتَ يُطريها
وَيَومَ أَسلَمتَ عَزَّ الحَقُّ وَارتَفَعَت ... عَن كاهِلِ الدينِ أَثقالٌ يُعانيها
وَصاحَ فيهِ (بِلالٌ) صَيحَةً خَشَعَت ... لَها القُلوبُ وَلَبَّت أَمرَ باريها
فَأَنتَ في زَمَنِ المُختارِ مُنجِدُها ... وَأَنتَ في زَمَنِ الصِدّيقِ مُنجيها
كَمِ اِستَراكَ رَسولُ اللَهِ مُغتَبِطاً ... بِحِكمَةٍ لَكَ عِندَ الرَأيِ يُلفيها

وواضح أن الأبيات تصف مرحلتين مختلفتين من حياة الفاروق : قبل إسلامه وبعده.

وبالرغم من وضوح الأبيات، إلا أن شاعرنا اتكأ على الأسلوب الكنائي كوسيلة تعبيرية كاشفة عن هاتين المرحلتين من حياة الفاروق.

ففي البيت الثاني تتعدد الكنايات فقوله : (قرت بصحبته عين الحنيفة واجتازت أمانيها) كناية عن عز الإسلام ونصرته بإسلام هذا الصحابي الجليل.

وقوله : (الحنيفة) كناية عن دين الإسلام، وفيها دلالة واضحة على سماحة هذا الدين، وأنه امتداد لشريعة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) قال – تعالى – : (الفاتحة البقرة

آل عمران النساء)[1]، وهي كناية مشهورة متعارفة، إلا أن شاعرنا أضفى عليها من وسائل التعبير البلاغي ما يرقى بها إلى مراتب الجمال والحسن، حيث شبه (الحنيفة) بإنسان تقر عينه بصحبة من يحب وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، والتصوير يضفي الهناء والسعادة على هذا الدين بسبب إسلامه وذلك في صورة محسة مشاهدة، مما يزيد المعنى تأكيدا ومبالغة.

وفي البيت الثالث نراه يشير إلى ما كان يكنه الفاروق من عداء لتلك الدعوة، وكيف كان عدوها اللدود فيقول :

خَرَجتَ تَبغي أَذاها في مُحَمَّدِها   وَلِلحَنيفَةِ جَبّارٌ يُواليها

والشطر الأول من البيت كناية عن رغبته في القضاء على تلك الدعوة، فالخروج من أجل النيل من صاحبها وحامل مشعل هدايتها لاشَكَّ أكبر دليل على الرغبة في القضاء عليها ومحوها من الوجود.

وتأتي هذه الكناية في مقابلة الكنايتين التي اشتمل عليهما البيت الثاني، فهي إذا كانت تصور نصرة الإسلام وعزته بإسلام عمر، فهذه تكشف عن شدة بغضه له، وقد تكاتفت عناصر التعبير فيها كاشفة عن هذا المعنى، فالفعل (خرجت) فيه إيحاء بالتعمد والقصد، والتعبير بـ (أذاها) على سبيل المجاز المرسل لعلاقة(المسببية) فالأذى مسبب عن الرغبة في القضاء على الدعوة، وإيثار التصريح باسم النبي (محمدها) وجعله مظروفا للحرف (في) يؤكد شدة بغضه لرسول الدعوة.

(١) سو?? ?? عمر?? ،?ية : ٩٥ .

وإذا كان شاعرنا عبر في كنايته السابقة باسمه (ﷺ) صراحة (محمدها) فنراه يكني عن الحق – سبحانه – بلفظ (جَبّارٌ) في الشطر الثاني، وهي كناية عن موصوف، وفيها دلالة واضحة على دفاع الحق – سبحانه – عن نبيه، ورده لكيد كل ظالم وكاره.

ثم يشير إلى نبأ إسلامه وكيف لامس القرآن شغاف قلبه، فحوله من عدو لدود إلى محب ودود، فيقول :

فَلَـم تَكَـد تَسـمَع الآيـاتِ بالِغَـةً حَتّـى انكَفَـأتَ تُنـاوي مَـن يُناويهـا

وقوله في الشطر الثاني من البيت (انكَفَأتَ تُناوي مَن يُناويها)كناية عن نصرته للدعوة، حيث صار جنديا من جنود الإسلام، يلوذ عنه ويدافع عن حياضه، وهي كناية قريبة أبرزت المعنى المقصود وأظهرته في صورة محسة، والتعبير في سياق تلك الكناية بالفعل (انكفأت) فيه إيحاء واضح بتسخير كل إمكانياته في نصرة الدعوة وارتفاع رايتها.

ونصرة الدعوة بإسلام عمر لها جوانبها المتعددة ولكن شاعرنا يختار منها ما يتناسب مع السياق الذي يحكي فيه إسلام هذا الصحابي الجليل فركز عليه من خلال الأسلوب الكنائي الذي يرمي من ورائه إلى سرد الأدلة والبراهين الكاشفة عن دوره في نصرة الدعوة وتعزيز وجودها، وكيف كان يوم إسلامه علامة فارقة في تاريخ الدعوة، ولذا يقول حافظ :

وَيَـومَ أَسـلَمتَ عَـزَّ الحَـقُّ وَارتَفَعَـت عَـن كاهِـلِ الـدينِ أَثقـالٌ يُعانيهـا

وفي قوله (عز الحق) كناية عن نصرة الإسلام به، وقد تضمنت مع إيجازها كناية عن موصوف، فالحق كناية عن الإسلام، حيث أطلقت الصفة وأريد بها

موصوفها، وهما كنايتان قريبتان واضحتان لا تحتاجان عناء في استخراجهما، كما هو الشأن في غالب كنايات تلك المقطوعة.

وفي قوله : (وَارتَفَعَت عَن كاهِلِ الدينِ أَثقالٌ يُعانيها) كناية قريبة من سابقتها، تكشف عن وقوفه (ﷺ) بالمرصاد لمن يحارب الدعوة أو يناوئها، وورود تلك الكناية عقب سابقتها مما يحدث تكاثفا للكنايات في التركيب الواحد، مما يبالغ في التصوير ويقرر المعاني، مما يدل على قدرة شاعرنا على دمج الكنايات وتتابعها للنهوض بأعباء المعنى على أكمل وجه.

ومما يضاعف من جمال تلك الكناية اتشاحها بوشاح المجاز الماثل في الاستعارة القائمة في قوله : (كاهل الدين)، حيث شبه الدين بإنسان يحمل أثقالا على كاهله ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (كاهل)، ويزداد التعبير جمالا بترشيح تلك الاستعارة بلفظ (أثقال) الموحي بصيغة الجمع عن بالغ دور الفاروق في التصدي لقذائف الظلم والطغيان التي كانت تُغيِّم على جو الدعوة آنذاك.

وتتوالى الكنايات الكاشفة عن دور الفاروق وذلك في قوله :

فَأَنتَ في زَمَنِ المُختارِ مُنجِدُها وَأَنتَ في زَمَنِ الصِدّيقِ مُنجيها

ففي الشطر الأول كناية مؤكدة لما سبقها من كنايات، وهو نصرة الدعوة وتقوية عضدها بإسلامه (ﷺ).

وفي الشطر الثاني (وَأَنتَ في زَمَنِ الصِدّيقِ مُنجيها) كناية عن دور عمر (ﷺ) في نبذ الخلاف الذي سبق مبايعة أبي بكر يوم السقيفة، وقد حسمه عمر بمناصرته لأبي بكر (ﷺ) ومبايعته له .

وقد نشرت هاتان الكنايتان ظلالهما على البيت كله ليصورا دور هذا الصحابي الجليل في نصرة الدعوة، مدعوماً ذلك بالأدلة، مقرونا بالبراهين.

ولعل من بلاغة التعبير الواضحة في صياغة هاتين الكنايتين تكرار المسند إليه (أنت) تأكيدا لهذا الدور، ورغبة من الشاعر في تقريره وبيانه، وحرصا منه على إبرازه وإشاعته، كما وسَّع شاعرنا من دائرة الزمن الذي يقصده بتكرار لفظ (زمن) مضافا مرة للفظ (المختار) ومرة أخرى مضافا إلى (الصديق) (ﷺ).

يضاف إلى ذلك : هذا الجناس اللاحق[1] الواقع بين لفظي (منجدها) و(منجيها) وكان له دوره في ميل السامع إلى الإصغاء لما أضفاه من وقع موسيقي ملحوظ.

فضلاً عما أضافه من حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة، فالسامع قبل أن يصل إلى أذنه كلمة (منجيها) بتمامها، يظن أن دور الفاروق في زمن الصديق هو نفس دوره في زمن المختار، ولكن سرعان ما يلتفت إلى تنوع أدواره بعد سماع الكلمة بتمامها، فهو منجدها من الظلم والطغيان في زمن النبي (ﷺ)، ومنجيها من الفرقة والاختلاف في زمن الصديق، ولا شك أن هذا مما يتناغم مع الكنايتين الواقعتين في البيت (٢).

---

(١) ?لجنا ??للاحق : ما?ختلف فيه?للفظا? في نو??لحر? ? ، ? كا??لحرفا? ?لمختلفا? متباعدين في?لمخر? ? ، ينظر : ???سا ? منهجية في علم?لبديع ، ? /?لشحا ? محمد?بو ستيت : صـ ٢٠٥ ، ???لى ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ ? .

(٢) ومع ذلك أرى أن الشطر الأول من هذا البيت فيه مبالغة واضحة من الشاعر ، إذ يشير

ثم يبرز حافظ ملمحا آخر امتاز به هذا الصحابي الجليل فوق دوره في مناصرة الدعوة، وقد عبر عنه بقوله :

كَـمِ اسـتراك رَسـولُ اللهِ مُغتَبِطـاً بِحِكمَـةٍ لَـكَ عِنـدَ الـرَأيِ يُلفيهـا

والبيت بتمامه كناية عن سداد رأيه وفطنته، مما جعل الرسول الكريم ينزل على قوله، ويأخذ برأيه في كثير من المواقف.

وقد آثر الشاعر هنا الكناية على الحقيقة ليقدم لنا المعنى " سداد الرأي والفطنة " مشفوعا بأدلته وبراهينه وهو كثرة استشارة الرسول (ﷺ) له وإعجابه برأيه، وهذا بلا شك مما يجعل المعنى يستقر في النفس ويرسخ في الذهن.

إلى أنه لولا إسلام عمر لماتت الدعوة وقضى عليها وهذا لايمكن قبوله ، = =ولو قال (معززها) باسم الفاعل من عزز الشيء بمعنى قواه وشدده لكان أوفق ، وفى ذلك تناسب وتلائم واضح مع دعائه (ﷺ) بقوله :" اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إلى : أبى جهل أوبعمر بن الخطاب" والحديث رواه ابن عمر وهو فى سنن الترمزى ، أبواب المناقب ، فى مناقب أبى حفص " عمر بن الخطاب " رقم : ٣٦٨١ ص: ٥٨/٦ ، تحقيق : بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامى بيروت – ١٩٩٨ .

الكناية في تصويره مبايعة الفاروق لأبي بكر بالخلافة

وفي هذا الموقف يقول حافظ :

وَمَوقِفٍ لَكَ بَعدَ المُصطَفى افتَرَقَت فيهِ الصَحابَةُ لَمّا غابَ هاديها
بايَعتَ فيهِ أَبا بَكرٍ فَبايَعَهُ عَلى الخِلافَةِ قاصيها وَدانيها
وَأُطفِئَت فِتنَةٌ لَولاكَ لاستَعَرَت بَينَ القَبائِلَ وَانسابَت أَفاعيها

والأبيات الثلاثة كاشفة عن الدور الرائد للفاروق (ﷺ) في وأده لتلك الفتنة التي كادت أن تطل برأسها تذهب بريح المسلمين، بعد وفاة قائدها ونبيها العظيم (ﷺ) حيث بايع الفاروق أبا بكر على الخلافة، فسلك الصحابة مسلكه نازلين على رأيه.

وقد اشتملت الأبيات على عدة كنايات متنوعة، فنجد الكناية عن موصوف في البيت الأول في لفظ (هاديها) كناية عن النبي (ﷺ) والتعبير بها في غاية الملاءمة للمقام والمعنى الذي يقصده الشاعر، فلا شك أن فقد الهادي وذهابه مما يؤذن بالضياع والفرقة والاختلاف، وقد صرح شاعرنا بذلك في قوله (افترقت فيه الصحابة) وهم – بلا شك - خير الناس على وجه الأرض الذين اصطفاهم الحق لنصرة دينه، غير ناظرين إلى شيء من متاع الدنيا وزينتها، ومع ذلك حدثت منهم الفرقة، وكادت أن تلقى بآثارها الوخيمة على الأمة لولا أن مَنَّ الله على الأمة بما فعل الفاروق، وقد أبان البيت الثاني عن ذلك :

بايَعتَ فيهِ أَبا بَكرٍ فَبايَعَهُ عَلى الخِلافَةِ قاصيها وَدانيها

وقوله : (قاصيها وَدانيها) كناية عن مبايعة الصحابة بالإجماع للصديق (ﷺ) بالخلافة نزولا على مسلك الفاروق.

وقد جاء الطباق الواقع بين اللفظين مؤكدا لما ترمي إليه تلك الكناية من كونهم على قلب رجل واحد في تلك المبايعة، كما يبرز فضل الفاروق على الأمة بهذا المسلك الرائع الذي به لَمَّ شعث الأمة بعدما أطلت عليها الفتنة برائحتها البغيضة التي تبغي القضاء على الإسلام بعد موت هاديها وقائدها.

وقد كشف شاعرنا عن هذا المعنى في البيت الثالث :

وَأُطفِئَت فِتنَةٌ لَولاكَ لَاستَعَرَت بَينَ القَبائِلَ وَانسابَت أَفاعيها

والبيت بتمامه كناية عن دور الفاروق في الحفاظ على وحدة المسلمين.

وقد برع شاعرنا في تصويره لهذا المعنى الكنائي، حيث تعانق التصوير الاستعاري معه في إبرازه، وقد جاء في موضعين :

الأول : في لفظ (فتنة) حيث شبهت بنار كادت أن تلتهم الأمة وتذهب بقوتها وتنهار دولتها ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفعل (أطفئت)، وقد رشح شاعرنا تلك الاستعارة بقوله : (لاستعرت) وكان لهذا المجاز أثره في تقويه المبالغة وتأكيد المعنى الكنائي في البيت، والموضع الآخر : في لفظ (الأفاعي) حيث استعير لأعداء الأمة وهي استعارة تصريحية أصلية كاشفة عن مدى الخبث و الاستعداد للتحفز من أعداء الأمة في الهجوم عليها وبث سموم الفرقة بين أبنائها.

وقد كان لهاتين الاستعارتين دورهما الرائد في الوصول إلى ما يبتغيه الشاعر، وذلك في إيجاز بديع وتصوير رائع، وهذا بلا شك مما يعود على أسلوب الكناية في البيت بالقوة والمبالغة.

الكناية في تصوير موقفه (ﷺ) حين لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى

وفي تصوير هذا الموقف يقول حافظ:

بــاتَ النَبِــيُّ مُسَــجّىً فــي حَظيرَتِــهِ ... وَأَنــتَ مُســتَعِرُ الأَحشــاءِ داميهــا

تَهيمُ بَينَ عَجيجِ الناسِ في دَهَشٍ ... مِن نَبأَةٍ قَد سَرى في الأَرضِ ساريها

تَصيحُ مَن قالَ نَفسُ المُصطَفى قُبِضَت ... عَلَــوتُ هامَتَــهُ بِالسَــيفِ أَبريهــا

أَنســاكَ حُبُّــكَ طَــهَ أَنَّــهُ بَشَــرٌ ... يُجري عَلَيهِ شُؤونَ الكَونِ مُجريها

وَأَنَّـــهُ وارِدٌ لا بُـــدَّ مَـــورِدَهُ ... مِــنَ المَنِيَّــةِ لا يُعفيــهِ ســاقيها

نَسيتَ فـي حَـقِّ طَـهَ آيَـةً نَزَلَـت وَقَـد يُـذَكَّرُ بِالآيـاتِ ناسـيها(١) وقد

حفلت الأبيات السابقة بمواطن متعددة للكناية، وهي تصور أبلغ تصوير موقف الفاروق وما اعتراه من فزع بفقد رسول الله (ﷺ)، فقوله في البيت الأول : (باتَ النَبِيُّ مُسَجّىً في حَظيرَتِهِ) كناية عن تحقق موته، والسياق في القصيدة هو الذي حدد دلالة تلك الكناية، فمد الثوب وتغطية الجسد الشريف به، ليس فيه إشارة إلى الموت، ولكن السياق هو الذي أبان عن أن شاعرنا لا يقصد حقيقة ذلك، بل يقصد ما وراء ذلك مما يحمله اللفظ، وهي كناية قريبة واضحة لا تحتاج إلى إعمال ذهن في إدراكها.

وتتوالى الكنايات في الأبيات، وكلٌّ منها له منحاه النفسي والسلوكي والقولي، فجملة الحال (وأنت مستعر الأحشاء داميها) كناية مصورة أبلغ تصوير لحالة الفزع والكرب اللذين حلَّا بأبي حفص (ﷺ)، وقد صاغ شاعرنا كنايته مكتسية ثوب الاسمية دلالة على أن ما أصاب الفاروق من حرقة وألم ثابتان دائمان.

وتأخذ الكناية السابقة شكلاً آخر من الجمال والحسن حين رشحها الشاعر بالاستعارة التصريحية التبعية في لفظ (مستعر) حيث شبه ما حلَّ بالفاروق من فزع وكرب بالاستعار الحسي، والتعبير بلفظ الجمع (الأحشاء) مع تعريفها بـ (أل) دلالة على توغل تلك المعاني في نفس الفاروق وشدة تأثره، وبهذا التعانق بين العديد من الفنون البلاغية يصور شاعرنا حال الفاروق أبلغ تصوير، مما يبرهن على

(١) أرى – أيضا - أن أبيات هذا المقطع الأنسب لها أن تكون قبل أبيات المقطع السابق عليها.

قدرة الشاعر العجيبة على دمج الفنون البلاغية وحسن توظيفها، حتى تنهض برسم مراده وإظهار صورته واضحة جلية.

وتلتقي الكناية في البيت الثاني مع سابقتها في المعنى إذ يقول حافظ :

تَهيمُ بَينَ عَجيجِ النـاسِ فـي دَهَشٍ مِن نَبأَةٍ قَد سَرى في الأَرضِ ساريها

والبيت بتمامه كناية مصورة لحالة الفزع والهلع والحيرة والاضطراب التي أصابت عمر (ﷺ) إثر علمه بنبأ موت النبي (ﷺ)، وقد جاءت ألفاظ تلك الكناية كاشفة عن تلك المعاني، فالفعل (تهيم) يبرز في صورة محسة متجددة ما أصاب الفاروق، حيث صار ينتقل بين الناس في تخبط (لا يدري أين يذهب)، ويظهر عنصر الصوت جليا في رسم المشهد في لفظ (عجيج) فالأصوات مرتفعة والصياح أصاب الجميع، كما أن صيغة (دهش) تنبئ عن هول المفاجأة وقوة وقعها على النفس، ولذا آثر الشاعر أن يعبر عنها بلفظ (نبأة) فالنبأ لا يطلق إلا على الخبر العظيم ذي الشأن [1]، وهذا اللفظ يحكي بجرسه وصيغته خشية الصحابة – رضوان الله عليهم – من الإعلان عن ذلك صراحة، لشدة استبعادهم لهذا الأمر، وكأنه لم يكن في حسبان أحد أبدا، كما أن تنكير هذا اللفظ (نبأة) مما يوحي بالخفاء، وكأننا نلمح منه همس الصحابة – رضوان الله عليهم – به، ومع ذلك ينتشر الخبر في أرجاء المدينة كانتشار النار في الهشيم، وقد كنى شاعرنا عن هذا المعنى بجملة (قد سرى في الأرض ساريها)، وتزداد المبالغة بإيثار الشاعر للفظ (الأرض) دون (المدينة).

(١) ينظر : ?لمفر?? في غريب ?لقر?? ، للر?غب ?لأصفهاني : ٤٨٢ – ??جعه ?قد? له : ??ئل?حمد عبد?لرحمن –?لم كتبة ?لتوفيقية – بد?? .

وإذا كانت الكناية السابقة تصف حالة الفاروق النفسية والسلوكية، فإن الكناية في البيت التالي تصور مشهدا آخر يدل على الفزع والهلع الذي أصابه وقد تمثل هذا المشهد في الجانب القولي ممزوجاً بالجانب السلوكي، وفيه يقول حافظ :

قبصيحُ : مَن قالَ نَفسُ المُصطَفى قبِضَت   عَلَوتُ هامَتَهُ بِالسَيفِ أَبريها

والبيت بتمامه كناية عن شدة الوعيد لمن يتلفظ بخبر موته (ﷺ).

وقد تكاتفت مع تلك الكناية عناصر تعبيرية عديدة تكشف عن شدة هذا الوعيد، وأثر وقع الأمر على الفاروق، فالتعبير بالفعل (تصيح) دون (تقول) – مثلاً – إنفاذاً لشدة الوعيد، والإتيان به مضارعا مما يشى بتجدده، وصياغة جملة المقول في ثوب الشرطية، تأكيد لتحقق الجزاء، وإيثار أداة الشرط (من) حتى يتحمل كل فرد تبعة التلفظ بهذا الخبر، وهو (القتل) الذي كنى عنه بقوله في الشطر الثاني (علوت هامته بالسيف أبريها)، وهذه الكناية جارية على طريقة العرب في كناياتهم عن شدة الوعيد بقطع الناصية والرقبة ودق العنق، كناية عن القتل، ولو كان بغير ذلك، يقول د / محمد أبو موسى إنهم " حين يذكرون دق العنق وقطع الرقبة كناية عن القتل بغير ذلك فإنهم يقصدون إلى التشنيع وإبراز عنصر القوة والعنف والإيجاع والاقتدار، والتمكن، وشدة الغيظ، وما شابه ذلك مما تراه يعلق بصورة دق العنق أو حز الرأس " [(١)].

ولاشك أن كل هذه المعاني ماثلة في تلك الكناية، والتي جاءت متعانقة مع الاستعارة التصريحية التبعية في لفظ (أبريها) حيث استعير (البري) لقطع

(١) ?لتصوير?لبياني ، ? / محمد?بو موسى : ٣٨٥ .

الهامة، مبالغة في شدة الوعيد وتناسبا مع هول الخطب وشدة الفجيعة التي أصابت الفاروق والتي تلمس لها شاعرنا عذراً في قوله في البيتين التاليين :

أَنســـاكَ حُبُّـــكَ طَـــهَ أَنَّـــهُ بَشَـــرٌ يُجري عَلَيهِ شُؤونَ الكَونِ مُجريها
وَأَنَّـــــهُ وارِدٌ لا بُـــــدَّ مَـــــورِدَهُ مِـــنَ المَنِيَّـــةِ لا يُعفيـــهِ ســـاقيها

والبيتان بتمامهما كناية عن عدم خلوده (ﷺ) وأنه ميت لا محالة، فالموت عاقبة كل حي، ونهاية كل موجود، وباب كل الناس داخله، وكأس كل الناس شاربه، ينال حتى الأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم سيدهم أجمعين.

وقد جاءت الاستعارة المكنية في الضمير العائد على لفظ (المنية) في (ساقيها) كاشفة هي الأخرى عن هذا المعنى، تأكيدا على أن الموت قضاء نافذ، وحكم شامل.

ثم يبين شاعرنا أن هول تلك الفاجعة على الفاروق هو الذي أنساه تلك الحقيقة المؤكدة فيقول :

نَســيتَ فــي حَــقِّ طَــهَ آيَــةً نَزَلَــت وَقَـــد يُـــذَكَّرُ بِالآيـــاتِ ناســـيها

وقوله في البيت (آية نزلت) كناية عن قوله تعالى :﴿بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1].

وإذا كان الفاروق قد نساها، فقد ذكره بها الصديق (ﷺ)، كما ذكر الصحابة كلهم، عندما علم بنبأ وفاته (ﷺ) لما رأى ما أصابهم من دهشة واستبعاد، فخطب في الناس معلنا على أسماعهم تحقق نبأ وفاته وأنه لحق بالرفيق الأعلى، مما أعاد الناس إلى صوابهم قائلا: " أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات....!! ومن كان يعبد الله فإن

(١) سو??? عمر?? ،?ية : ١٤٤ .

الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية : ﴿بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ صدق الله. الآية).

قال : فو الله لَكَأَنَّ النَّاسُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ يَوْمئِذٍ وسمعها الناس منه، فانطلقوا يرددونها متبصرين بما فيها من معان وأحكام، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ عُمَرُ : فوَ اَللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا، فَعَقِرْتُ حَتَّى وَقَعْتُ إِلَى الْأَرْضِ مَا تَحْمِلُنِي رِجْلَايَ، وَعَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَدْ مَاتَ "[1] .

وتصوير هول تلك الصدمة التي ألمت بالمسلمين وزلزلت كيانهم كانت أداة تصوير لغير شاعرنا وبخاصة فيما يتعلق بموقف خليفتي رسول الله (ﷺ) أبي بكر وعمر (رضى الله عنهما).

(١) تهذيب سير? ?بن هشا? ، عبد ?لسلا? ها?? : ٣٩٣ ، ?لمؤسسة ?لعربية ?لحديثة للطبع ??لنشر ??لتو?يع .

فنجد الشاعر عبد الحليم المصري يقول :

وريـع أبـو حفـص بمـوت محمـد فهاج كما استعديت في الغيل ضاريا
وقـال : وربُّ البيـت لسـت منـثن إذا قلتموهـا أو أقـط النواصـيا
وأنسـاه هـول الخطـب آيـة ربـه وليس أبو بكر على الخطب ناسيا (١)

والأبيات السابقة من مطولته البكرية، والتي نظمها إعجابا بسيرة الخليفة الأول (ﷺ) وتكريما وإجلالا له، فهو الصاحب الوفي والصديق الصدوق للنبي (ﷺ).

وواضح أن الشاعر في أبياته السابقة يوازن بين موقف هذين الصحابيين الجليلين، فالفاروق وهو من هو في القوة والجرأة والشدة، يزلزله خبر نعي الرسول الكريم، ولا يكاد يصدق ما يقال، بل ويتوعد ويهدد من يقول به، أما أبو بكر رقيق القلب، فقد أدرك بحسه وعقله أن النبي مفارق للحياة لا محالة، فلما نزل الأمر كان هو الأثبت والأقدر على تحمل الموقف، والأوعى بما في كتاب الله – تعالى – .

والذي يهمنا في هذا المقام أن نوازن بين تلك الأبيات الثلاثة من البكرية، والأبيات التي معنا من عمرية حافظ (ﷺ) من الناحية التصويرية، وبخاصة التصوير بالكناية.

(١) ?يو?? عبد?لحليم?لمصر? : ٢ / ٣٠٩ – ٣١٠ .

وواضح أن كلا الشاعرين في أبياته يصور هول تلك الفاجعة وشدة الصدمة التي نزلت بالفاروق (ﷺ) إلا أن المصري اتخذ من مقارنته بين موقف الصحابيين الجليلين وسيلة لمدح أبي بكر الصديق (ﷺ) كاشفا عن دوره الرائد وموقعه العظيم، وحنكته في تثبيت نفوس المسلمين بإرجاعها إلى الحي الذي لا يموت، ولذلك يقول :

نهى لم يزدها الهول إلا حصانة إذا ما زعزعت منها الرياح رواسيا[1]

كما نلحظ أن المصري أبان عن موت النبي (ﷺ) بأسلوب التصريح فقال : (بموت محمد) بينما عبر شاعرنا عن ذلك بالأسلوب الكنائي، ولعل في لجوء شاعرنا إلى أسلوب الكناية دون التصريح، أن أسلوب الكناية هو الأنسب للشخصية التي جعلها محور قصيدية، والتي كاد أن يُنسيها – بل أنساها بالفعل – هول المصيبة لبعض ما ورد في كتاب الله.

ونلحظ – أيضا – أن كلا الشاعرين وصفا الفاروق بالنسيان، تأكيدا على شدة فجيعته وهول تلك الصدمة عليه، إلا أن حافظاً أسنده مرة إلى (حب طه) على سبيل المجاز العقلي، وذلك في قوله : (أنساك حبك طه أنه بشر)، ومرة عن طريق الحقيقة، وذلك في قوله : (نسيت في حق طه آية نزلت)، بينما عبر المصري به على سبيل المجاز العقلي - أيضا - ولكن بإسناده إلى هول الخطب، وهذا مما لا شك يتناسب مع مقصد كلا الشاعرين، فالمصري يريد أن يعلي من شأن شخصيته البكرية، بأنه كان الأقدر على تحمل هذا الخبر، وكان الرجل المناسب في الوقت المناسب، في تلك اللحظة الحرجة في حياة الأمة، بينما يريد حافظ أن يركز على شدة محبة الفاروق للنبي (ﷺ) وإظهار هذا الجانب عنده، مما أنساه أنه يُجْرَى عليه ما يجري على كل البشر في نزول هذا الأمر الحتمي اللازم.

(١) ?يو?? عبد?لحليم?لمصر? : ٢ / ٣٠٩ – ٣١٠ .

كما نلحظ أن كلا الشاعرين قد ذكرا عن طريق الأسلوب الكنائي تهديد الفاروق لكل من تسول له نفسه أن يتلفظ بخبر وفاة النبي (ﷺ)، إلا أن نبرة الوعيد كانت أشد وأقوى عند المصري حيث آثر في جملة مقول القول والتي جرت على لسان الفاروق في قوله :(فقال : ورب البيت لست بمنثن...) صيغة القسم مع اختياره للمقسم به (رب البيت) بماله من مكانة عظيمة في نفوسهم، بينما اعتمد حافظ على أسلوب الشرط، وهو – بلا شك – أقل قوة في التأكيد من أسلوب القسم.

ونلحظ – أيضا – أن كلا الشاعرين أبان عن حركة الفاروق بين الناس وقت تلقيه هذا النبأ الفاجع، وقد اعتمد حافظ على أسلوب الكناية كاشفا عنها في قوله :

تَهيمُ بَينَ عَجيجِ النـاسِ فـي دَهَشٍ مِن نَبأَةٍ قَد سَرى في الأَرضِ ساريها

بينما كان المصري أكثر إبانه حيث اعتمد على أسلوب التصريح من خلال هذه الصورة التشبيهية، (فهاج كما استعديت في الغيل ضاريا) وهي صورة كاشفة عن اهتياج الفاروق كالسبع الضاري في أجمته، وهذا مما يتناسب مع مقصد المصري في عقده للمقارنة بين الصحابيين الجليلين، ليظهر شموخ أبي بكر وثباته وتماسكه وحنكته في مواجهة الموقف، وقد كان أبو بكر بحق كما قيل : " جُذَيْلهَا الْمُحَكَّك وَعُذَيْقهَا الْمُرَجَّب " [(1)] رحم الله الصحابيين الجليلين.

---

(١)?لبد?ية ??لنهاية لابن كثير : ٥ / ٢٤٦ ، ?معنى جذ?يلها?لمحكك :???نه مثل?لجذ? ، ?هو?صل?لشجر? ، ??لك ???لجربة من?لإبل تحتك ?لى ?لجذ? فتشتفي به ،??:?نه يشتفى بر?يه كما تشتفي?لإبل بهذ??لجذ? ?لذ? تحتك ?ليه ، ??لعذيق : تصغير ??لعذ? ، ?هو تصغير تعظيم ، ?هو

الكناية في تصوير دور الفاروق الرائد يوم السقيفة

ما إن انتهى المسلمون من مواراة الجسد الطاهر حتى كان أمر سقيفة بني ساعدة والتي بايع المسلمون فيها أبا بكر الصديق بالخلافة، نازلين على صنيع فاروق الأمة (ﷺ)، ولاشك أن فقد النبي (ﷺ) وقت ذاك كان يمثل مرحلة خطيرة في حياة الأمة، والتي بدأت على إثرها رياح الخلاف تهب عليها، لولا أن منَّ الله على الأمة بالفاروق، فوأد تلك الفتنة في مهدها، وفي تصوير هذا الدور الرائد يقول شاعر النيل :

كل غصن له شعب ، ??لنخلة عند?هل?لحجا? ، ??لمرجب : من?لترجيب ?هو?لتعظيم ، ?? فلانا لمرجب ، ?قيل :?لترجيب معنا? هنا :??فا??لنخلة من جانب ليمنعها من?لسقو ? ، ??لمعنى?نه هو?لمعضد ??لمانع لها من ?لسقو ? ، ينظر : لسا??لعر ? : (جذ ?) ? (حكك) ? (عذ ?) ?(?جب) ، ???حيا??لتر? ??لعربي ، مؤسسة ?لتا?يخ?لعربي ، بير? ? ، لبنا? ، ? ٢ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ ?.

ذَهِلــتَ يَومــاً فَكانَــت فِتنَــةٌ عَمَــمٌ وَثــابَ رُشــدُكَ فَانجابَـت دَياجيهــا(١)
فَلِلسَــقيفَةِ يَــومٌ أَنــتَ صــاحِبُهُ فيــهِ الخِلافَــةُ قَــد شــيدَت أَواســيها
مَــدَّت لَهــا الأَوسُ كَفّــاً كَــي تَناوَلَهــا فَمَــدَّتِ الخَــزرَجُ الأَيــدي تُباريهــا
وَظــنَّ كُــلُّ فَريــقٍ أَنَّ صــاحِبَهُم أَولــى بِهــا وَأَتــى الشَــحناءَ آتيهــا
حَتّــى انبَرَيــتَ لَهُــم فَارتَــدَّ طــامِعُهُم عَنهــا وَأَخّــى أَبــو بَكــرٍ أَواخيهــا

وقد تألقت الكناية ضمن ما حوته الأبيات من ألوان بلاغية لتصور هذا الموقف من الفاروق (ﷺ).

ففي البيت الأول تتآزر عدة كنايات، ويُسْلم بعضها البعض، فقوله : (ذهلت يوما) كناية عن الصدمة التي أصابت الفاروق وزلزلت كيانه، حتى كاد لا يصدق فراق النبي (ﷺ)، و (يوماً) كناية عن يوم وفاته، وفي قوله (فكانت فتنة عمم) كناية عن خطرها الداهم حتى كاد أن يفتك بالأمة ويُنْزِل بها البلايا.

وقد تعانقت مع تلك الكناية الاستعارة المكنية، حيث شبهت تلك الفتنة بالليل الحالك السواد، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (الدياجي) مبالغة في خطر تلك الفتنة، حيث كانت دولة الإسلام ما زالت وليدة يحيطها الأعداء من كل مكان يتحينون الفرص للانقضاض عليها، ووصف تلك الفتنة بـ (عمم) تأكيد على أن الصدمة ألمت بالمسلمين جميعا وتتوالى الكنايات ففي الشطر الثاني يأتي قوله (وثاب رشدك) كناية عن إدراك الفاروق للأمر، ووقوفه على تلك الحقيقة المرة، وأن النبي ما هو إلا واحد من بشر، مبلغ عن ربه،

(١) أرى أن الترتيب الأوفق لهذا البيت من أبيات تلك المقطوعة يقتضى أن يكون فى بداية أبيات المقطوعة السابقة .

يجري عليه ما جرى على غيره من الرسل، ويرتب شاعرنا على تلك الكناية، كناية أخرى في قوله (فانجابَت دَياجيها) كناية عن زوال خطر تلك الفتنة، عندما حسم الصديق أمر وفاة النبي، فكان خير سند ومرشد للأمة في هذا الظرف العصيب.

وبالتأمل في تلك الكنايات التي اشتمل عليها البيت نلحظ التناغم والتناسق بين كل كناية وسابقتها، حيث ترتبت الكناية الثانية (فكانت فتنة عمم) على سابقتها، كما ترتبت الكناية في قوله (فَانجابَت دَياجيها) على سابقتها، مما أحدث وقعا موسيقيا في البيت كان له أثره في لفت السامع وجذب انتباهه، كما كان لتلك المقابلة المعنوية الواقعة بين شطري البيت أثرها الواضح في إظهار المعاني واضحة قوية مترابطة، فضلا عما أضفته من التوازن والتناسب بين جمل البيت، وكان له أثره الصوتي الواضح في وقع البيت.

وتطالعنا الكناية في قوله : (أنت صاحبُه) كناية عن تفرد الفاروق بهذا الموقف العظيم والذي لولاه لحل الشقاق والنزاع بين أبناء الأمة.

وما أجمل هذا التنكير في لفظ (يوم) المنبئ عن وطأة هذا الظرف العصيب في حياة الأمة، وفي هذا التوقيت الحرج الذي تبحث فيه عمن يقود دفتها ويكمل مسيرة بنائها عن طريق الخلافة والتي استقر أمرها لأبي بكر الصديق (ﷺ) بفضل مبايعة عمر له، وقد أبانت الصورة الكنائية الواقعة في الشطر الثاني من البيت عن هذا المعنى.

فقوله : (فيه الخلافة قد شيدت أواسيها) كناية عن استقرار أمرها وعدم المنازعة فيه.

وترجع بلاغة تلك الكناية أنها قدمت المعنى مشفوعا بدليله مصحوبا ببرهانه، كما أبرزت المعقول (ثبات الأمر) في صورة محسوسة، مما يزيده استقرارا في النفس ووضوحا في المعنى.

وضاعف من جمال تلك الكناية تولدها من رحم التصوير الاستعاري حيث شبهت الخلافة بالبناء المحكم أو بالخيمة المحكمة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله (أواسيها) تأكيداً لمعنى الثبات والاستقرار.

وتتوالى الكنايات في البيت الثاني :

فمَدَّت لَهـا الأَوسُ كَفّاً كَـي تَناوَلَهـا فَمَـدَّتِ الخَـزرَجُ الأَيـدي تُباريهـا

فمد الأيدي من كلا الجانبين (الأوس والخزرج) كناية عن التنازع على الخلافة ورغبة كل فريق في نيل قصب السبق لهذا الأمر العظيم.

وهي كناية بعيدة لا يتوصل إليها إلا بعدة وسائط ؛ لأن مد الأيدي من كلا الجانبين نحو شيء معين، يقتضي شدة الرغبة فيه، وذلك يستلزم رغبة كل فريق في الاستحواذ عليه دون الآخر، وهذا يستلزم التنازع عليه، فالكناية هنا مكونة كما يقول د / محمد أبو موسى من عدة حلقات كل واحدة منها تسلم خيط الفكرة وشعاع الإدراك إلى الأخرى، حتى تنتهى إلى المقصود [1].

(١) ينظر :?لتصوير?لبياني ، ? / محمد?بو موسى : ٣٩٨ .

ومما يؤكد هذا التنازع ويبرزه – أيضا – تلك اللفتة التعبيرية من شاعرنا حيث صوَّر الخلافة في صورة شيء نفيس يحاول كل طرف أن يناله ويستحوذ عليه، وذلك قائم على التصوير بالاستعارة المكنية.

ومما يضفي المبالغة على هذا التنازع ويُصَعِّد من حدته التعبير بلفظ (كفا) في جانب الأوس، بينما جاء التعبير بلفظ (الأيدي) في جانب الخزرج، كما عدل الشاعر عن لفظة (تناولها) إلى لفظة (تباريها) وهي أدل من سابقتها على الرغبة في الاستئثار بالشيء وامتلاكه.

وواضح – أيضا – شيوع عنصر الحركة في الكثير من الألفاظ التي جاءت مكونة لهذا التركيب الكنائي، وذلك في : (مدت – تناولها – فمدت – تباريها) وهذا مما يبرز الصراع ويؤججه بين كلا الفريقين.

وهنا يأتي دور الفاروق في التصدي لتلك المحاولة العابثة من هؤلاء الطامعين، فيقول حافظ :

حَتّـى انبَرَيـتَ لَهُـم فَارتَـدَّ طـامِعُهُم عَنهـا وَأَخّـى أَبـو بَكـرٍ أَواخيهـا

والشطر الأول من البيت : كناية عن دوره المؤثر في إنهاء الموقف بما في صالح الأمة واستقرارها.

وقد جاءت ألفاظها كاشفة عن شخصية عمر القوية المتصدية لكل عابث وطامع، فالفعل (انبرى) يعنى التعرض للشيء والتقدم نحوه بعزيمة وإصرار، والفعل (ارتد) وعطفه بالفاء على سابقه فيه إيحاء بسرعة رجوعهم نزولا على رغبة

الفاروق الحاسمة لكل خلاف، والتي جاءت في الصالح العام للأمة، والتي انتهت بتقليد الصديق أمرها.

وقد سلك حافظ مسلك التعبير الكنائي في الإبانة عن هذا المعنى في الشطر الثاني من البيت في قوله : (وَأَخّى أَبو بَكرٍ أَواخيها) فهو كناية عن استتباب أمر الخلافة له، واستقرار أمر الدولة على يديه.

ومما بالغ في جمال تلك الكناية الرائعة أنها جاءت مبنية على المجاز الاستعاري، حيث شبهت الخلافة بدابة أُحْكِمَ زمامها، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو (الأواخي) وهي مفرد (أَخِّية والآخِيَّة) وتعني : العروة التي تثبَّت في الأرض أو الحائط وتربط فيها الدابة، وقيل : حبل يدفن في الأرض مثنيا ويبرز طرفاه الآخران شبه حلقة وتشد به الدابة [1].

وكان حافظ بارعا حقا في اعتماده على هذا التصوير الكاشف عن استقرار الأمور بمبايعة أبي بكر بالخلافة، حيث تحتاج إلى حزم وحسم وتثبيت لأركان الدولة، كما تحتاج الرعية إلى حسن الرعاية والرفق بها، وتحمل مسؤليتها كاملة، وهذا كله مما تحتاجه الدواب - أيضا -من القائمين على أمورها.

وبهذا برع حافظ (ﷺ) من خلال صوره البيانية وبخاصة الكنائي منها في الإبانة عن تطلع البعض إلى امتلاك مقاليد الأمور بعد موت رسول الله(ﷺ)، وكيف حسم الفاروق الأمر وتصدى له بكل حزم وقوة وإلى المقطوعة التالية في تلك العمرية لنرى هذا المعنى بكل وضوح وجلاء.

(١) ينظر : لسا??لعر ? لابن منظو? : ما?? (?خا).

الكناية في تصوير موقف الفاروق من علي بن أبي طالب عندما امتنع عن مبايعة أبي بكر بالخلافة يوم السقيفة

لما أشار حافظ إلى ما حدث من رأب للصدع الذي كاد أن يحل بالأمة وانتهى بمبايعة أبي بكر بالخلافة يوم السقيفة بفضل الفاروق (ﷺ) كان من المناسب الإشارة بعد ذلك إلى ما بدا من معارضة أحد كبار الصحابة لتلك المبايعة، وهو سيدنا على بن أبي طالب، وكيف تصدى له عمر مهددا ومتوعدا، وفي هذا المعنى يقول حافظ :

وَقَولَـــةٍ لِعَلِـــيٍّ قالَهـــا عُمَـــرٌ	أَكــرِم بِســامِعِها أَعظِــم بِمُلقيهــا
حَرَقــتُ دارَكَ لا أُبقــي عَلَيــكَ بِهــا	إِن لَـم تُبـايِع، وَبِنـتُ المُصطَفى فيها
مـا كـانَ غَيـرُ أَبـي حَفصٍ يَفوهُ بِها	أَمــامَ فــارِس عَــدنانٍ وَحاميهــا
كِلاهُمـا فــي سَـبيلِ الحَـقِّ عَزمَتُـهُ	لا تَنثَنــي أَو يَكــونَ الحَــقُّ ثانيهــا
فَاذكُرهُمــا وَتَــرَحَّم كُلَّمــا ذَكَــروا	أَعاظِمــاً أُلِّهــوا فــي الكَــونِ تَأليهــا

وشاعرنا في أبياته السابقة لم يقصد التقليل من شأن علي – كرم الله وجهه – فهو زوج بنت رسول الله، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وإنما قصد أن يُسْرد الحدث ويبين فضل عمر في لَمِّ صف الأمة وجمع شملها، فقوله : (أكرم بسامعها) كناية عن عمر، والتعبير بها بمثابة احتراس بليغ من شاعرنا حتى لا يُظَن أنه يقصد إضفاء شيء من الإساءة لعلي – كرم الله وجهه –.

وقوله (أعظم بملقيها) كناية عن عمر (ﷺ)، والتعبير بها - أيضا - احتراس بليغ آخر يدفع عن عمر قصد الإساءة إلى واحد من الصحابة ومن أحبَّة رسول الله (ﷺ) وأقاربه، وكانت صياغة هاتين الكنايتين بأسلوب التعجب إعجابا بهما ومدحا لهما.

وكان التغاير بين فعلى التعجب بـ (أكرم) في شأن علي وبـ (أعظِم) في شأن عمر في غاية التناسب والملاءمة للصحابيين الجليلين، فـ (علي) بنسبه القريب من رسول الله يناسبه صيغة (أكرم) و(عمر) بقوة شخصيته وعظيم هيبته يناسبه صيغة (أعظِم).

ومما أضفى الجمال – أيضا – على هاتين الكنايتين السابقتين مجيؤهما في ثوب هذا اللون البديعي والذي يُعرف باللف والنشر المرتب [1]، وكان له دوره الواضح في إثارة الفكر وتنشيط العقل والربط بين أجزاء الكلام وتلاحم عناصره.

وتأتي مقولة الفاروق في البيت الثاني :

حَرَقتُ دارَكَ لا أُبقي عَلَيكَ بِها إن لَم تُبايِع وَبِنتُ المُصطَفى فيها

وقد اشتمل البيت على كناية لطيفة في قوله في نهايته (وَبِنتُ المُصطَفى فيها) كناية عن موصوف، وهي فاطمة (رضى الله عنها).

---

(١) ?للف ??لنشر : ? ك ر متعد? على?لتفصيل???لإجما? ، ثم ? ك ر ما ل ك ل من هذ??لمتعد? من غير تعيين ثقة بأ??لسامع ير???ليه ، فإ? ? ك ر مرتبا فهو?لمرتب ??لا فهو?لمشو ? ، ينظر :?لقو??لبديع في علم?لبديع للشيخ ?لإما? / مرعي بن يوسف ?ل ك رمي ?لمقدسي ?لحنبلي – صـ : ٤٣ ، ???سة ?تحقيق ، ? / عو ? بن معيو ? بن ??يد?لجميعي – ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ ? .

والتعبير الكنائي هنا بالرغم من قربه يفوق بكثير الأسلوب الصريح، كما لو قيل: إن لم تبايع وفاطمة في دارك، لأن ما جاء عليه هذا الأسلوب ليس فيه ما يشي بصلة القرابة القوية بين المكني عنها، والنبي (ﷺ).

والمعنى الذي يرغب الشاعر في إبرازه يتناغم مع تلك الكناية ويتطلب التعبير بها لما فيه من الإيحاء بعدم عدول الفاروق عما عزم عليه مهما كان الأمر، ولن يشفع لعلي تلك الصلة القوية بينه وبين النبي (ﷺ) فهو ابن عم النبي، وزوج بنته (ﷺ).

وهذه المقولة السابقة البالغة التهديد لـ (على) – كرم الله وجهه – ما كان يقدر عليها إلا الأكفاء من الرجال، الذين يمتلكون هممًا عالية، وروحا وثّابة، وجرأة وشجاعة، وقد عبر شاعرنا عن هذا المعنى بأسلوب الكناية في البيت الثالث :

ما كانَ غَيرُ أَبي حَفصٍ يَفوهُ بِها أَمامَ فارِسِ عَدنانٍ وَحاميها

والبيت بتمامه كناية عن عظيم هيبة الفاروق وقوة شخصيته بين الصحابة، إذ يلزم من عدم قدرة أحد على التفوه بتلك المقولة المهدِّدة والمتوعِّدة لعلي أنَّ مَنْ يتجرأُ عليها قوي الشخصية، عظيم المهابة.

ومما يتآزر مع هذا المعنى الكنائي ما جاءت عليه الصياغة من الإيحاء بالقصر غير الاصطلاحي، إذ المعنى : لا أحد يقدر عليها إلا أبو حفص، وإيثار التعبير بـ (أبي حفص) مما يبالغ في التصوير ويبرهن على شاعرية حافظ في اختياره اللفظ المناسب للمعنى والسياق، لأن التعبير بتلك الكنية فيه دلالة على القوة والشجاعة دون الاسم (عمر) مثلاً وفي هذا غاية التناغم بين اللفظ والمعنى.

وإذا كانت الكناية السابقة أضفت المهابة وقوة الشخصية على الفاروق، فقد تألقت الكناية عن موصوف في إضفاء عظيم الهيبة على (علي) (ﷺ) وذلك في قوله : (أَمامَ فارِسِ عَدنانٍ وَحاميها) وما كنا لنلمح هذا المعنى وذلك الإيحاء لو جاء التعبير صريحا فقيل : أمام علي، فما جاءت عليه الصياغة في البيت يعني أن (علياً) ليس بالشخص الضعيف الذي يوجَّه إليه التهديد والوعيد، كما يعني أن عظيما يواجه عظيما آخر، ولذا عرج الشاعر على مدحهما معا في البيت الرائع قائلاً :

كِلاهُما في سَبيلِ الحَقِّ عَزمَتُهُ لا تَنثَني أَو يَكونَ الحَقُّ ثانيها

وفي قوله : (عَزمَتُهُ لا تَنثَني) كناية عن ثبات الموقف والقوة والصلابة في التمسك بما هو حق، وضاعف من جمال تلك الكناية تولدها من رحم الاستعارة المكنية، حيث شبهت العزيمة بالشيء الحسي الذي لا يرتد أو ينعطف، وذلك تأكيدا للمعنى وإمعانا في تصوير المعنى المراد.

والتقييد بـ (في سبيل الحق) يبعد عن هذين الصحابيين الجليلين شبهة التعصب الأعمى للرأي والتصلب للباطل والدفاع عنه، ومن هنا ناسب ذلك أن يترحم عليهما شاعرنا وينعي هؤلاء الذين تألهوا في الأرض فقال :

فَاذكُرهُما وَتَرَحَّم كُلَّما ذَكَروا أَعاظِماً أُلِّهوا في الكَونِ تَأليها

ولا نعدم الكناية في البيت فقوله : (أَعاظِماً أُلِّهوا في الكَونِ تَأليها) كناية عن صفة القداسة والتعظيم، وقد برع شاعرنا في نظمها، فإيثار صيغة الجمع (أعاظما) دون عظماء دلالة على أنها عظمة في غير محلها، وأنها تخطت حدود بشريتهم الفانية، والتعبير بما لم يسم فاعله في (أُلِّهوا) دلالة على أنها عظمة بغير حق

عمادها التجبر والطغيان على الخلق ؛ لأن الألوهية لا تكون في حقيقتها إلا لله، وهو وحده المتفرد بالعظمة والتقديس والإجلال.

وكان التعبير بالقيد (في الكون) بما يومئ به من رحابة المكان وعمومه له دلالته على فرط التقديس والتعظيم لهؤلاء البشر الطغاة، كما أوحى بذلك التأكيد بالمصدر (تأليها).

وتأتي هذه الكناية على مرمى حجر من الكناية السابقة في البيت الرابع لتعقد مقارنة واضحة بين هذين الصحابيين الجليلين اللذين أضفى عليهما نصرتُهما للحق الإجلالَ والتعظيم، وبين تلك الآلهة البشرية المزيفة الذين أَضْفوا على أنفسهم هالات التقديس والتعظيم بطغيانهما على البشر.

ولما ختم شاعرنا مقطوعته بهذا المعنى كان من المناسب أن يذكر نموذجاً من هؤلاء البشر الطغاة، ليبين كيف تصدى الفاروق لبطشهم وقضى على نعراتهم فإلى المقطوعة التالية الكاشفة عن ذلك.

الكناية في تصوير موقفه من جبلة بن الأبهم

إن من أهم ما تميز به الفاروق (ﷺ) عدله بين الرعية وقوة شخصيته التي تقف بالمرصاد أمام كل طاغية وظالم، ولم يغب عن شاعرنا ببراعته الفنية ولغته الرائقة أن يسجل في عمريته موقفا يدل على ذلك ويبرز هذا الجانب فيقول :

كَم خِفتَ في اللهِ مَضعوفاً دَعاكَ بِهِ ... وَكَم أَخَفتَ قَوِيّاً يَنثَني تيها
وَفي حَديثِ فَتى غَسّانَ مَوعِظَةٌ ... لِكُلِّ ذي نَعرَةٍ يَأبى تَناسيها
فَما القَوِيُّ قَوِيّاً رَغمَ عِزَّتِهِ ... عِندَ الخُصومَةِ وَالفاروقُ قاضيها
وَما الضَعيفُ ضَعيفاً بَعدَ حُجَّتِهِ ... وَإِنْ تَخاصَمَ واليها وَراعيها

وقد تألقت الكناية ضمن ما حوته الأبيات من ألوانٍ بلاغية في الإبانة عن هذا الجانب لدى الفاروق.

فقوله في البيت الأول : (كَم خِفتَ في اللهِ مَضعوفاً دَعاكَ بِهِ) كناية عن نصرته للحق ولو كان أهله ضعافا.

وقوله في الشطر الثاني : (وكم أخفت قويا ينثني تيها) كناية عن قوة شخصية التي لا تعبأ بقوة أو جاه أو سلطان.

والكلام هنا يمكن أن يراد به حقيقته، لكن حافظا رمى به أبعد من ذلك، وهو ما وراء الخوف من الضعيف المنتصر بالله، من الانتصار له، والوقوف بجانبه حتى يُرَد إليه حقه، كما رمى من وراء إخافةِ القوي الممتلئ تيها وكبرا، قوة شخصية الفاروق المتصدية لكل متجبر وطاغ.

ولا يخفى ما للكنايتين هنا من دور عظيم في إبراز هذا الجانب الذي تميزت به الشخصية العمرية، حيث جاء ذلك مدعوما بأدلته مقرونا ببرهانه، وقد أبرزت صياغة البيت هذا المعنى وأكدته من خلال التعبير بـ (كم) التي للتكثير، قصدا إلى تعدد المواقف الدالة على هذا الجانب لدى الفاروق، كما أكد المعني وأظهره واضحا جليا تلك المقابلة الواقعة في البيت بين لفظي (خفت ومضعوفا) وبين (أَخَفْت وقويا) ويلتقط شاعرنا مثالا مشهورا سجله التاريخ في صفحة هذا الخليفة العادل، فيقول :

وَفـي حَـديثِ فَتـى غَسّـانَ مَوعِظَـةٌ لِكُـلِّ ذي نَعْـرَةٍ يَـأبى تَناسـيها

وقوله : (فتى غسان) كناية عن موصوف، وهو جبلة بن الأيهم أحد أبناء الغساسنة ملوك الشام، وكان قد اعتنق الإسلام، وبينما هو يطوف يوما إذ وطيء أعرابي ثوبه، فلطمه جبلة لطمة هشمت أنفه، فشكاه الأعرابي إلى عمر، فأمر أن يُقْتَص منه، وأبى جبلة ذلك، وهرب والتجأ إلى القسطنطينية [(١)].

وفي إضافة (حديث) إلى اللفظ المكني به (فتى غسان) إشارة إلى أنه أضحى أمرا معلوما، ليكون عبرة وعظة لكل من يستغل جاهه أو يستعلي بسلطانه.

وفي إيثار لفظ الكناية دون اللفظ المكني عنه (جبلة بن الأيهم) لما يحمله لفظ الكناية من دليل ساطع وبرهان واضح كان دافعا لهذا الفتى المدلل المعتز بجاهه وقوته، على أن يعتدي على أعرابي لمجرد أنه وطيء ثوبه دون قصد منه.

(١) ينظر : ?لمفصل في تا?يخ ?لعر ? قبل ?لإسلا ? للد ك تو? جو?? علي : ٦ / ١١٨ ، ???لساقي ، ?لطبعة ?لر?بعة ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١?

وتطالعنا الكناية عن موصوف في قوله (لكل ذي نعرة) وهو كناية عن من يعتز بجاهه وملكه وعصبيته ويتخذ من ذلك وسيلة للتسلط على العباد، والتعبير بلفظ الكناية فيه إيحاء بالقبح والتشنيع على أمثال هؤلاء، وإيثار التعبير بالحرف (ذي) دون (صاحب) لما في التعبير بالحرف (ذي) من الدلالة على التمسك الشديد بهذه الأمور التي رفضها الإسلام وأسقطها ولم يجعلها مقياسا للتفاضل بين الناس.

كما جاء التعبير بالفعل (تناسيها) دون (يأبى نسيانها) ليعضد من شدة رغبتهم ويبرز حرصهم المتعمد في الإبقاء على مثل هذه النعرات البغيضة.

ثم يطلعنا حافظ على مظهر من أهم مظاهر عدالة الفاروق والتي ترسخت في عهده فيقول :

فَمـا القَـوِيُّ قَوِيّـاً رَغـمَ عِزَّتِـهِ عِنـدَ الخُصـومَةِ وَالفـاروقُ قاضـيها
وَمـا الضَـعيفُ ضَـعيفاً بَعـدَ حُجَّتِـهِ وَإِن تَخاصَـمَ واليهـا وَراعيهـا

والبيتان بتمامهما كناية عن تحقق العدالة في مجلس قضائه دون تحيز للقوى على حساب الضعيف.

وهي كناية موضحة وشارحة لما سبقها، وتتجلى بلاغتها في أنها قدمت لنا المعنى (العدالة) ومعه أدلة ثبوته، مما يعطي التعبير الكنائي قوة ومبالغة لا توجد في صريح اللفظ.

ومما يبالغ في روعة تلك الكناية أنها صورت لنا المعنى من خلال حالتين متقابلتين، فقد سلبت القوة من القوي في مجلس القضاء، كما سلبت الضعف عن

الضعيف بعد أن يقدم حجته في إثبات حقه، وقد أظهرت تلك المقابلةُ المعنويةُ المعنى واضحا قويا مترابطا، وحددت المعنى الذي يرمى إليه الشاعر (العدالة) في الذهن تحديدا قويا، كما كان لها وقعها في إحداث نمط من التوازن والتناسب في النظم له حسنه وبهاؤه، فضلاً عما أحدثته من أثر صوتي له أثره وقيمته في التعبير.

وكما تجلت الكناية في البيتين السابقين، وكان لها دورها الرائد في تأدية المعنى، فقد تألقت تلك الكناية التي جاءت ممتزجة في بنية الكناية السابقة في قوله (وإن تخاصم واليها وراعيها) وهي كناية عن صفة المساواة في مجلس قضائه، وهذا هو العدل في أسمى صوره، فلا يتأثر بأهواء النفوس ولا تشوبه أية شائبة، ولا يجامل أحدا على حساب الحقيقة في محاولة إرضاء الطرف القوي (واليها) على حساب الطرف الضعيف (راعيها).

ومما يبرز من قيمة تلك الكناية أنها جاءت عن طريق المطابقة، والتي كان لها دورها هي الأخرى في إيضاح المعنى الكنائي وتأكيده.

وبمراجعة التأمل في نظم البيتين نجد تلك القيود التي جاءت متناغمة مع ما يتطلبه مجلس القضاء من حسم وتحديد، وما تتطلبه العدالة من التحري والدقة، تأمل قوله (عند الخصومة)، وهذا القيد له أهميته ؛ لأن الله (ﷻ) خلق الناس متفاوتين بالطبع قوة وضعفا، ولا يمكن إنكار ذلك، والإسلام لا يعيب على القوي قوتَه لذاتها، ولكن المهم في ميزان الإسلام عدم التأثر بتلك القوة عند القضاء.

كما تأمل هذا القيد في جانب الضعيف (بعد حجته) فليس القصد هو التحيز للضعيف من أجل ضعفه، بل المراد التحيز لحجته التي يملكها، والتي قوَّت موقفه.

كما تتجلى براعة شاعرنا عندما آثر التعبير بلفظ (الفاروق) في هذا السياق، دون عمر، أو أبي حفص مثلاً، فهذا اللفظ مما يتناغم مع مجلس القضاء الذي يُفَرَّق فيه بين الحق والباطل ويسمو فيه ميزان العدالة فوق كل اعتبار، وإلى موقف آخر من مواقف الفاروق في عمريته.

الكناية في تصوير موقفه من أبي سفيان حين حبس لنفسه شيئا من مال المسلمين

إذا كان شاعرنا صوَّر في المقطوعة السابقة وقوف عمر وتصديه لمن غلبت عليه نعرة الجاهلية المستقوية بالجاه والملك ممثلة في (جبلة بن الأيهم) فإننا نراه بعد ذلك يجلي سمة أخرى من أعظم سمات تلك الشخصية وهي عدم مجاملتها لأحد على حساب الحق، ولو كان هذا الإنسان من أعظم الناس مكانة وهيبة.

وقد التقط حافظ من التراث الإسلامي ما يوضح ذلك، حيث أشار إلى ما يروي من أنَّ معاوية – وهو على الشام – بعث مرة إلى عمر بن الخطاب بمال وأدهم، وكتب إلى أبيه أبي سفيان أن يدفع ذلك إلى عمر، فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدهم، فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عمر، واحتبس المال لنفسه، فلما قرأ عمر الكتاب قال : فأين المال يا أبا سفيان ؟ قال : كان علينا دين ومعونة، ولنا في بيت المال حق، فَقَالَ عُمَرُ : اطْرَحُوهُ فِي الأَدْهَمِ (أي القيد) حَتَّى يَأْتِيَ بِالْمَالِ، فَأَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ من أتاه المَال، فَأمر عُمَر بإطلاقه من الأَدْهَمِ، فلما قدم الرسول على معاوية قال : أَرَأَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُعْجَبَ بالأدهم، قَالَ : نعم، وطرح فِيهِ أَبَاك،

قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : جَاءَه بِالأَدْهَمِ و حَبَسَ الْمَالَ، قَالَ : أَيْ وَاللَّهِ، وَالْخَطَّابُ لَوْ كَانَ لطرحه فِيهِ [1].

(١) ينظر :?لمحن ، لمحمد بن?حمد بن تميم?لتميمي?لمغربي?لإفريقي : ٤٠٠ ، تحقيق : ? / عمر سليما??لعقيلي ، ???لعلو? -?لريا ? –?لسعو?ية ،?لطبعة?لأ?لى ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤? .

وفي تصوير هذا الموقف يقول حافظ :

وَما أَقَلتَ (أَبا سُفيانَ) حينَ طَوى عَنــكَ الهَدِيَّــةَ مُعتَــزّاً بِمُهــديها
لَـم يُغنِ عَنـهُ وَقَـد حاسَبتَهُ حَسَبٌ وَلا (مُعاوِيَــةٌ) بِالشــامِ يُجبيهــا
قَيَّـدتَ مِنــهُ جَلـيلاً شــابَ مَفرِقُــهُ فــي عِـزَّةٍ لَـيسَ مِـن عِـزٍّ يُـدانيها
قَـد نَوَّهـوا بِاسـمِهِ فـي جاهِلِيَّتِـهِ وَزادَهُ سَــيِّدُ الكَــونَينِ تَنويهــا
فـي فَـتحِ مَكَّـةَ كانَـت دارُهُ حَرَمـاً قَـد أَمَّـنَ اللَهُ بَعـدَ البَيـتِ غاشـيها
وَكُلُّ ذَلِكَ لَم يَشفَع لَدى (عُمَرٍ) فــي هَفــوَةٍ لِأَبــي سُــفيانَ يَأتيهــا
تَـاللَهِ لَـو فَعَـلَ (الخَطّـابُ) فَعلَتَـهُ لَمــا تَــرَخَّصَ فيهــا أَو يُجازيهــا
فَـلا الحَسـابَةُ فـي حَـقٍّ يُجامِلُهـا وَلا القَرابَــةُ فــي بُطــلٍ يُحابيهــا
وَتِلــكَ قُــوَّةُ نَفــسٍ لَــو أَرادَ بِهــا شُــمَّ الجِبــالِ لَمــا قَــرَّت رَواســيها

وبالنظر في الأبيات نجد أن الكناية كان لها دورها الرائد في تأدية المعنى الذي يرمي إليه الشاعر، وأنه اتكأ عليها كواحدة من أهم الأدوات التعبيرية الموصلة إلى مضمون تلك القصة.

فنجد الكناية عن موصوف في البيت الثالث :

قَيَّـدتَ مِنــهُ جَلـيلاً شــابَ مَفرِقُــهُ فــي عِـزَّةٍ لَـيسَ مِـن عِـزٍّ يُـدانيها

فقوله : (جَليلاً شابَ مَفرِقُهُ) كناية عن أبي سفيان، وما كان الشاعر ليصل إلى مبتغاه لو صرَّح باسمه دون ذكر لتلك الصفات التي كنت عنه، وذلك نظرا لأهميتها في إظهار مراده، من أن تلك الصفات لم تشفع له عند عمر (ﷺ) .

وقد حوت تلك الكناية في داخلها كناية أخرى عن صفة في قوله : (شاب مفرقه) كنايةً عن كبر سنه وشيخوخته، وقوله : (ليس من عز يدانيها) كناية عن عظيم منزلته.

وهما كنايتان قريبتان كما هو واضح، شأن الكثير من كنايات حافظ في تلك العمرية وتتوالى الكناية عن موصوف في البيت التالي :

قَـد نَوَّهـوا بِاسـمِهِ فـي جاهِلِيَّتِـهِ وَزادَهُ سَـــيِّدُ الكَـــونَينِ تَنويهـــا

ففي قوله (سيد الكونين) كناية ماتعة بالرغم من وضوحها، وهي كناية عن النبي (ﷺ)، وكان شاعرنا بارعا في اختيار هذا اللفظ الكنائي دون : النبي أو محمد أو المختار مثلا ؛ لأن لفظ الكناية يلقى بظلالٍ من التعظيم على شخص رسول الله (ﷺ)، ولاشك أن هذا المعنى يضفى التعظيم على أبي سفيان نفسه، حيث حظى برفعة الشأن من أعظم الخلق، والمعظَّمُ من العظيمِ عظيم.

ولكن هل أغنت عنه تلك المنزلة أو شفعت له لدى الفاروق، وفي جواب ذلك يقول شاعرنا :

وَكُلُّ ذَلِكَ لَم يَشفَع لَدى (عُمَرٍ) فـي هَفـوَةٍ لِأَبـي سُـفيانَ يَأتيهـا

وتتجلى الكناية في قوله (في هَفوَةٍ) وهي كناية عمَّا فعله أبو سفيان عندما احتبس المال لنفسه، وفي التعبير بها إيجاز بديع، فضلا عما تحكيه اللفظة بوقعها وجرْسها وتنكيرها من التقليل من شأن هذا الأمر، وأنه لم يكن ليستحق هذا العقاب الذي أنزله الفاروق بهذا الصحابي الجليل متناسيا مكانته في الجاهلية والإسلام.

ولكنه الحق الذي ألزم به سيدنا عمر نفسه، وتميزت به شخصيته والتي لم تكن لتجامل أحدا، حتى ولو أقرب أقربائه، ولذلك يقول حافظ :

تَـاللهِ لَـو فَعَـلَ (الخَطّـابُ) فَعلَتَـهُ لَمـا تَـرَخَّصَ فيهـا أَو يُجازيهـا

والبيت بتمامه كناية عن عدم مجاملته أو محاباته لأحد.

وتتجلى بلاغة تلك الكناية في تصويرها لهذا الجانب من شخصية الفاروق مقرونا بالدليل والبرهان، وهو أن أباه (الخطاب) لو فعل ما فعله أبو سفيان لما تنازل عن معاقبته أو مجازاته، وهذا – بلا شك – أكبر دليل على انتصاره للحق وصرامته في تنفيذ ما تقتضيه العدالة.

وورود هذه الكناية في سياق الجملة المؤكدة بالقسم، مما يزيد هذا الموقف تأكيدا وقوة وجلاءً ووضوحا، ولعل شاعرنا كان من الذكاء بمكان عندما آثر صيغة القسم بـ (تالله) دون غيرها، وذلك لأنها – كما هو معلوم – أغرب صيغ القسم وأقلها ورودا واستعمالا [1]، مما يشير إلى أن هذا الموقف وذلك المسلك لم يكن ليصدر إلا من أمثال عمر، وهم قلة قليلة، لا تجامل ولا تحابي أحدا على حساب الحق، وما كان ليقدر على ذلك إلا أولو العزم من الرجال، كما أن التعبير بـ (تالله) فيه زيادة معنى عن التعبير بالباء – أي بالله – وهو التعجب [2]، ولذا يختم حافظ هذا المقطع بقوله :

وَتِلْكَ قُوَّةُ نَفْسٍ لَو أَرادَ بِها شُمَّ الجِبالِ لَما قَرَّت رَواسيها

والبيت بتمامه كناية عن قوة شخصيته وشدة صرامته في مواجهة المواقف، وهذه الكناية لا يمكن معها إرادة المعنى الحقيقي، وذلك لأن الجبال الراسيات لا تتأثر بمثل تلك المواقف، ولكن شاعرنا سلك في سبيل التأكيد على معناه مسلك

(١) ينظر : بديع?لقر?? لابن?بي?لأصبع?لمصر? : ?، ٧٧ ، ٧٨ ، تحقيق : ? / حفني شر ? ، نهضة مصر ، بد?? .

(٢) ينظر : ?لكشا ? عن حقائق ?لتنزيل ?عيو? ?لأقا?يل في ?جو? ?لتأ?يل ، جا?? لله ?بي?لقاسم?لزمخشر? : ٣ / ١٩٤ ، مكتبة مصر .

المبالغة، وهي مبالغة مقبولة، خفَّف الشاعر من غلوها وقَرَّبها من الصحة بإدخال حرف (لو) ؛ لأنه يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط.

وبهذا الصنيع كان شاعرنا موفقا في توظيف كثير من العناصر التعبيرية ليرسم إطاراً يبرز فيه روعة كناياته، بالرغم من قربها إلى الذهن وعدم حاجتها إلى كثير من إعمال العقل في سبيل الوصول إليها.

الكناية في تصوير موقف الفاروق من خالد بن الوليد

توطئة :

من المعلوم تاريخيا أن سيدنا خالد بن الوليد قاد جيوش المسلمين في فتوحات الشام، وقد عُرِف بأنه (سيف الله المسلول)، وذلك لجرأته وشجاعته واستبساله في ميادين المعارك، ولعل ذلك كان سببا في إقبال جند المسلمين عليه وحبهم له واستماتتهم بين يديه في جميع حروبه.

ولما تولى سيدنا عمر الخلافة عقب وفاة أبي بكر كان خالد يقود جيوش المسلمين في فتح الشام، وقد علم سيدنا عمر بما في قلوب الجند تجاه خالد من امتنان وحب له ليُمن طالعه في الحروب وشجاعته، فخشى افتنان المسلمين به، ولذلك بادر بعزله، وأرسل بريدا بذلك يأمره فيه بإسناد إمارة الجيش إلى أبي عبيدة بن الجراح، ولما وصل الخِطَاب إلى خالد امتثل للأمر، وانضم تحت راية الجند، مثل أي جندي من جنود المسلمين.

وهذا الموقف من سيدنا عمر لم يغب عن ذهن شاعرنا وهو ينظم (عمريته) وقد استفاض في الحديث عنه، حيث استغرق بيانُه جزءاً كبيراً من تلك القصيدة، فقد بلغت أبياتُه تسعةً وعشرين بيتاً، مما جعلني أستعرضه تحت معانٍ جزئية، حتى يتسنى للقارئ الكريم أن يتعرف على دور الكناية في إبراز المعنى في كل موقف، وكان ذلك على النحو التالي :

أولاً : الإشادة باستبسال خالد بن الوليد في ميدان المعركة :

وقد كان البدء بهذا المعنى تمهيدا ذكيا من شاعرنا، حتى يتسنى له أن يُثبت بلغته الشعرية الرائعة أن هذه الانتصارات التي حققها سيدنا خالد لم تكن لِتُثْنِي الفاروق عن هذا الموقف الحاسم تجاه الصحابي الجليل سيدنا خالد بن الوليد.

وقد استخدم الشاعر الأسلوب الكنائي ضمن ما استعمله من ألوان بلاغية لتصوير هذا المعنى وإبرازه إلى المتلقي في صورة رائقة.

والأبيات التي تصور هذا المعنى :

سَل قاهِرَ الفُرسِ وَالرومانِ هَل شَفَعَت لَهُ الفُتوحُ وَهَل أَغنى تَواليها؟
غَزى فَأَبلى وَخَيلُ اللهِ قَد عُقِدَت بِاليُمنِ وَالنَصرِ وَالبُشرى نَواصيها
يَرمي الأَعادي بِآراءٍ مُسَدَّدَةٍ وَبِالفَوارِسِ قَد سالَت مَذاكيها
ما واقَعَ الرومَ إِلّا فَرَّ قارِحُها وَلا رَمى الفُرسَ إِلّا طاشَ راميها
وَلَم يَجُز بَلدَةً إِلّا سَمِعتَ بِها (اللهُ أَكبَرُ) تَدوي في نَواحيها
عِشرونَ مَوقِعَةً مَرَّت مُحَجَّلَةً مِن بَعدِ عَشرٍ بَنانُ الفَتحِ تُحصيها
وَ(خالِدٌ) في سَبيلِ اللهِ موقِدُها وَ(خالِدٌ) في سَبيلِ اللهِ صاليها
أَتاهُ أَمرُ (أَبي حَفصٍ) فَقَبَّلَهُ كَما يُقَبِّلُ آيَ اللهِ تاليها

وتطالعنا الكناية عن موصوف في قوله (قاهِرَ الفُرسِ وَالرومانِ) كناية عن خالد بن الوليد، وكان التعبير عن هذا الصحابي بهذا الوصف له دلالته، والتي لم تكن تتحقق إذا جاء التعبير عنه صراحة باسمه، فهذا الوصف أكبر دليل وبرهان على شجاعة هذا الصحابي الجليل ودوره في رفع راية الجهاد في الأمة.

وقد اختار شاعرنا هذا الوصف دون غيره في الدلالة على موصوفه ؛ لأنه أخص صفاته ومن أعظم ما اشتهر به، وتخصيص الوصف (قاهر) بالإضافة إلى الفرس والرومان مبالغة في بيان هذا الوصف، وذلك لأنهما أكبر امبراطوريتين قويتين آنذاك.

ويكشف شاعرنا عن انتصاراته فيقول :

غَـزى فَـأَبلى وَخَيـلُ اللهِ قَـد عُقِـدَت بِاليُمنِ وَالنَصرِ وَالبُشرى نَواصيها

وقد اشتمل البيت على كناية عن نسبة، حيث نُسِبت صفات اليمن والنصر والبشرى إلى نواصي الخيل مع أن المراد إثباتها لراكبيها.

وتكمن بلاغة تلك الكناية الرائعة أنها أثبتت تلك الصفات لخالد بن الوليد عن طريق في غاية التأكيد، حيث جاءت كالقصة المصحوبة بدليلها، حيث نُسِبَت هذه الصفات إلى نواصي الخيل، ولا تصلح هذه النواصي أن تقوم بها تلك الصفات، فتعيَّن أن تقوم براكبيها على سبيل الملازمة، وهذا بلا شك أقوى وأبلغ من التصريح بنسبة تلك الصفات إلى خالد (ﷺ) مباشرة.

ومما زاد من هذا التأكيد تعبير شاعرنا بالجملة الاسمية (وخيل الله...) المفيدة للثبوت والدوام.

ومما زاد تلك الكناية روعة وجمالا تلك الاستعارة الماتعة، حيث شُبِّهت تلك الصعاب بأمور حسية تُعقد بنواصي الخيل، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الفعل (عقدت)، وفيها تأكيد على الملازمة، وإيضاح للمعنى المراد.

ويبدو في البيت التأثر الواضح من شاعرنا بالبيان النبوي، وذلك في قوله (ﷺ) : ﴿الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ﴾ (1)، وهذا التأثر له دلالته الواضحة على ثقافة شاعرنا الإسلامية الواسعة وحسن توظيفه لها في لغته الشعرية.

وفرق كبير بين قول حافظ وقول النبي(ﷺ) الذى لاينطق عن الهوى، وواضح في البيان النبوي الكناية عن نسبة، حيث نُسِبَ الخير إلى نواصي الخيل والمراد نسبتها إلى مربيها والحريصين على تقنيتها.

ومن البيِّن أن لغة الحديث سلكت مسلك العموم في إثبات صفة الخيرية إلى الخيل عموما كناية عن نسبتها إلى أصحابها، مما يدعو إلى التشجيع على تقنيتها، بخلاف ما أوحت به إضافة الخيل إلى اسم الجلالة (وخيل الله) في بيت شاعرنا، وفيها إيحاء واضح بتخصيصها بالخيل المعدة لملاقاة الأعداء في ميدان الحرب وهذا مما يتسق مع المعنى الذي يصوره شاعرنا.

كما أن لغة الحديث النبوي سلكت مسلك الإيجاز، وذلك في إيثارها لفظ (الخير) الجامع لكل ألوانه، بخلاف الإطناب القاصر في لغة شاعرنا.

كما أن لغة الحديث النبوي جاءت على الأصل في إدخال حرف الباء على لفظ (النواصى) (بنواصيها)، بخلاف لغة الشاعر التي جاءت بإدخال حرف الباء على

(1) صحيح مسلم بشر??لنو? ? ،?لإما??لنو? ? ، كـتا ?: ??لإما?? ، با ? : ??لخيل? في نو?صيها??لخير??لى يو???لقيامة ،?قم: 97 ، ?? / صلا ? عويضة، ?? / محمد شحاتة ، ????لمنا? ، ???لى ، 1423هـ - 2003? .

الصفات نفسها (باليمن والنصر والبشري)، وهذا على سبيل القلب، وهو كما هو معلوم سماعي في اللغة [1].

ولاشك أن المسلك التعبيري في البيان النبوي أكثر دلالة على ملازمة صفة الخيرية لنواصي الخيل، ومن ثمَّ لأصحابها، بخلاف ما أوحى به هذا التغاير اللغوي عندما آثر شاعرنا أسلوب القلب في بيانه، ولعل الذي دعاه إلى ذلك الوزن العروضي.

ويتألق البيان النبوي في سماء البلاغة روعة وجمالا بما أضفاه جناس المضارع الواقع بين (الخيل – والخير) على الأسلوب من وقع موسيقي ملحوظ كان له أثره القوي في النفس.

وفي البيت الرابع :

مـا واقَـعَ الـرومَ إلّا فَـرَّ قارِحُهـا وَلا رَمـى الفُـرسَ إلّا طـاشَ راميهـا

وقد اشتمل كل شطر في البيت على كناية تدل على معنى واحد، وهو القوة والشجاعة وشدة البأس.

ومن البيِّن أنهما كنايتان قريبتان، لا يحتاجان إلى إعمال عقل وكدح ذهن في الوصول إليهما، ومع ذلك فهما في غاية البلاغة والروعة، حيث صوَّرت كل واحدة شجاعة الفاروق في صورة محسة وأثبتتها بالدليل والبرهان، وذلك في إيجاز بديع

(١)?نظر :?للبا ? في تصريف?لأفعا? ، ? / محمد عبد?لخالق عضيمة ، صـ : ٧ ، ? ???لحديث .

وتصوير رائع توافرت فيه كل العناصر التعبيرية الدالة على المعنى الكنائي الذي يقصده الشاعر.

تأمل دلالة الفعل (فرَّ) بوقعه وجرسه وما ينبئ به من معاني الذعر والخوف، وكذلك الفعل (طاش) وما يدل عليه من الاضطراب والفزع، وواضح عنصر الحركة جليا في أغلب مفردات هاتين الصورتين الكنايتين مثل : (واقع، فرَّ، رمى، طاش) وهذا مما يتناسب مع ما تحتاجه ميادين الحروب ويتطلبه النصر.

وفي إسناد (الفرار) إلى (القارح) خاصة له دلالته على الشجاعة المفرطة التي تميز بها سيف الله المسلول، حيث جعلت الرجل القوي المكتمل البنية يفر مذعورا من ميدان المعركة، كما يؤكد هذا المعنى الكنائي سوق الكنايتين في ثوب أسلوب القصر مؤثرا أقوى طرقه وأبلغها، وهو طريق النفي والاستثناء، ولا شك أن كل هذه الخصوصيات التعبيرية مما يعود على أسلوب الكناية بالقوة والمبالغة.

وتلك الشجاعة التي تميَّز بها سيف الله كان دائما ما يُتوجها بالنصر على الأعداء، وقد كنى شاعرنا عن هذا المعنى في بيته التالي :

وَلَـم يَجُـز بَلـدَةً إِلّا سَـمِعتَ بِهـا (اللّهُ أَكبَـرُ) تَـدوي فـي نَواحيهـا

والبيت بتمامه كناية عن تحقق النصر، وهي كناية قريبة كسابقتها، حيث ينتقل الذهن من سماع صيحة (الله أكبر) في ميدان المعركة إلى معنى النصر دون واسطة، وقد اختار شاعرنا عنوان النصر ورمزَه الذي يُتَوِّج به المسلمون معاركهم

مع أعدائهم، كما أن فى التعبير بهذا الرمز مايدل على حس حافظ الدينى وحبه لهذا الدين.

وواضح – أيضا – أن المعنى الحقيقي لتلك الكناية مقصود بجانب المعنى الكنائي، وهذا مما يزيد في ثراء الكناية، لما يتطلبه من الإلمام بكل الدلالات التي يحتملها الأسلوب.

ومما يزيد تلك الكناية قوة ومبالغة أن الشاعر رشَّحها بثوب القصر، وذلك بأقوى طرقه، وهو طريق النفي والاستثناء، وكان له دلالته الواضحة على أن النصر كان حليفه في كل البلاد التي شرفه الله بفتحها، وأن الهزيمة لم تعرف له طريقا أبدا، حتى سجل له التاريخ كما يقول شاعرنا :

عِشــرونَ مَوقِعَــةً مَــرَّت مُحَجَّلَــةً مِن بَعدِ عَشرٍ بَنـانُ الفَتحِ تُحصيها

وقد جاءت الكناية عن صفة واقعة موقعها في قوله : (**مَرَّت مُحَجَّلَةً**) وهي كناية عن ذيوع هذه المواقع وانتشارها ووضوحها في سجل التاريخ الإسلامي.

ونلحظ أن شاعرنا اعتمد على عنصر اللون في بيان هذا المعنى الكنائي، فيقال : حجلت الدابة حجلا : ابيضت أو ظِفَتُها وسائرها أسود، والتحجيل : بياض في قوائم الفرس أو بعضها، وحجَّلت المرأة بنانها : لوَّنت خضابه [1].

(١) ينظر : ?لمعجم?لوسيط : ١٥٨ ، مجمع?للغة?لعربية بالقاهر? - ???لدعو? - ?٣ - ١٩٨٥? .

وهذا المسلك التعبيري مما يدل على قدرة الشاعر ومهارته في توظيف الألفاظ الموحية باللون نحو المعنى الذي يريد تصويره وأن يوائم بينها وبين المعنى في مهارة فنية.

ولعل شاعرنا كان من الذكاء بمكان عندما عبر بهذا الوصف (محجلة) قاصدا بذلك المواقع المشهورة فى حياة هذا الصحابى الجليل، وذلك مما يدفع مايمكن أن يوجه إليه من نقد مفاده أن هذا الصحابى الجليل غزا أكثر من ذلك بدلالة قوله (رضى الله عنه) عند موته (لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ومافى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أوطعنة أورمية وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء) (١)

وبمعاودة النظر في البيت مرة أخرى نجد تآزر المجاز الاستعاري مع الكناية السابقة في الدلالة على ذيوع تلك الغزوات وشهرتها وذلك في قوله : (بنان الفتح تُحصيها) حيث شبه الفتح بإنسان يُحصي أشياءً، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (بنان)، وذلك مبالغة وتوكيدا لما يقصده من معنى، في تصوير خلاب وتشخيص معجب.

ثانيا : تلقيه خبر عزله من قيادة الجيش :

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لأبى الحسن ابن الأثير ص: ٢/١٤٠ ، ت/ على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية – ط١ – ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

لمَّا تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر عزم على نزع قيادة الجيش من خالد بن الوليد خشية افتتان الناس به – كما بيَّنت سابقا – ولا شك أن ذلك ربما كان يَلقي معارضة من قبل هذا القائد المغوار أو يؤثر في نفسه ببغض الفاروق أو محاولة إحداث انقلاب عسكري عليه، مستغلا ثقة الجيش به وتفانيه في حبه، ولكن ما حدث شيء من ذلك ؛ لأنه تخرج من الكلية الحربية النبوية، والتي لا يتأثر أفرادها بأهواء النفوس ومطامعها، بل عاشوا جميعا تحت مظلة الزهد، وعلى مبدأ إنكار الذات.

وفي تصوير تلك المعاني يقول شاعرنا :

أَتــاهُ أَمــرُ أَبــي حَفــصٍ فَقَبَّلَــهُ ... كَمــا يُقَبِّــلُ آيَ اللهِ تاليهــا
وَاِستَقبَلَ العَزلَ في إبّانِ سَطوَتِهِ ... وَمجدِهِ، مُستَريحَ النَفسِ هاديها
فَاعجَب لِسَيِّدِ مَخزومٍ وَفارِسِها ... يَومَ النِّزالِ إذا نادى مُناديها
يَقودُهُ حَبَشِيٌّ في عِمامَتِهِ ... وَلا تُحَرِّكُ مَخزومٌ عَواليها
أَلقى القِيادَ إِلى الجَرّاحِ مُمتَثِلاً ... وَعِزَّةُ النَفسِ لَم تُجرَح حَواشيها

وَانضَـمَّ لِلجُنـدِ يَمشـي تَحـتَ رايَتِـهِ   وَبِالحَيـــاةِ إِذا مالَـــت يُفَـــدّيها
وَمــا عَرَتــهُ شُــكوكٌ فــي خَليفَتِــهِ   وَلا ارتَضـى إِمـرَةَ الجَـرّاحِ تَمويهـا
فَخالِــدٌ كــانَ يَــدري أَنَّ صــاحِبَهُ   قَـد وَجَّـهَ الـنَفسَ نَحـوَ اللهِ تَوجيهـا
فَمــا يُعــالِجُ مِــن قَــولٍ وَلا عَمَــلٍ   إِلّا أَرادَ بِـــهِ لِلنـــاسِ تَرفيهـــا
لِــذاكَ أَوصــى بِــأَولادٍ لَــهُ عُمَــراً   لَمّـا دَعـاهُ إِلـى الفِـردَوسِ داعيهـا

وفي الأبيات السابقة يبرز لنا حافظ بلغته الفنية كيف استقبل خالد نبأ عزله وهل تأثرت نفسه بذلك، والأبيات واضحة الدلالة على ما تحمله من معان وقد وردت الكناية فيها في عدة مواضع :

فالبيتان الأولان : كناية عن نزول سيدنا خالد على أمر الفاروق مع غاية الرضا وطيب النفس.

وقد أظهرت الصياغة اللغوية دقة الشاعر وفطنته في اختياره للمفردات والصيغ التي تدعِّم معناه الكنائي وتدل عليه.

ففعل الإتيان في قوله (أتاه) فيه إيحاء بالأريحية وصفاء القلب في استقبال الأمر، بخلاف فعل المجيء، إذا قيل : وجاءه أمر ؛ حيث يدل على الثقل النفسي في تلبية الأمر، يدل على ذلك أن فعل الإتيان مجيء بسهولة، ومرجع السهولة فيه إلى كون الحركة صادرة عن طواعية ورغبة أو لوقوع الفعل حال انقياد وطاعة، أما فعل المجيء فيتميز بدلالته على الصعوبة، وهي راجعة إلى ما في حركته من مشقة وكلفة، أو إلى ما فيه من شدة ورهبة وقهر أو استفظاع تجعله ثقيلاً صعبا [(١)].

(١) ينظر :?لإتيا? ??لمجي? – فقه ?لالتهما ??ستعمالهما في?لقر??ل كـ ريم ، ?

والتعبير بلفظ (أمرُ) له دلالته، فليس هناك مجال للمناقشة أو التردد، فالأمر يستوجب السمع والطاعة، والفعل (قبَّله) يوحي بصيغته بالرضا عن طيب خاطر، وقد أبانت الصورة التشبيهية في الشطر الثاني عن هذا المعنى، وزادته مبالغة ورضوخا، والفعل (استقبل) فيه إيحاء بالحفاوة في تلبية أمر قائده، مع أن فيه ما يدعو إلى الغضب والإثارة لو استقبله قائد آخر، وقد أنبأت لفظة (العزل) عن ذلك، ففيها ما يدعو إلى تغيُّر النفس وغضبها وثورتها.

وقوله : (فِي إِبّانِ سَطوَتِهِ وَمجدِهِ) كناية عن غاية الزعامة وكمال الانتصار وقد كان ذلك كفيلا بمراجعته للفاروق فيما أصدره من أمر، أو تغير نفسه.

وقد جاء التعبير بصيغتي (مستريح) و (هاديها) كاشفا عن معنى الثبوت والدوام، فهكذا كان حاله الدائم، فلم يجزع أو تتغير نفسه ولو للحظات، مما جعله مثار إعجاب وإجلال من شاعرنا فيقول :

فَاعجَب لِسَيِّدِ مَخزومٍ وَفارِسِها يَومَ النِزالِ إِذا نادى مُناديها

وقوله (لسيد مخزوم وفارسها) كناية عن موصوف، وهو خالد بن الوليد، وتكمن بلاغتها في هذا السياق أنها قدمت لنا الحديث عن هذا الصحابي الجليل مقرونا بأعظم ما تميَّز به وعرف عنه، وقد كانت هذه الصفات التي جاءت بديلة عن موصوفها كفيلة بأن يجعله يثور أو يعترض على قرار عزله، فهو ليس

/ محمو? موسى حمد?? ، صـ : ٤٣ ، مكتبة ?هبة ، ??لى ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ ? .

بالضعيف، بل هو سيد قبيلته وفارسها المغوار الذي تلجأ إليه عندما يشتد الخطب في ميادين المعارك.

وقد كنى شاعرنا عن شدة الخطب بقوله : (إذا نادى مناديها) وقد جاءت مقرونة بدليلها، فمناداة المنادى يوم النزال على هذا القائد المغوار دليل على شدة الحاجة إليه، وهذا يستلزم عظم الأمر وشدة الخطب.

وقد جاءت هذه الكناية الأخيرة مصعدة لدواعي الثورة، والاعتراض على قرار العزل، ويزداد التصعيد لهذه الدواعي بالبيت التالي :

يَقــودُهُ حَبَشِــيٌّ فــي عِمامَتِــهِ وَلا تُحَــرِّكُ مَخــزومٌ عَواليهــا

وفي قوله (يَقودُهُ حَبَشِيٌّ) كناية عن موصوف، وهو سيدنا بلال بن رباح، فقد كان عبداً حبشيا مملوكا لأحد صناديد الشرك، وكم عذبه سيده عندما علم بإسلامه، وأنزل به صنوف العذاب والهوان والنكال، حتى افتداه الصديق بماله وأعتقه ابتغاء مرضاة الله، ليمارس إسلامه في حرية، ويكون صرحا في بناء الدعوة.

ومع ذلك يتجرأ هذا المملوك – في الأصل – وينفذ أمر الفاروق في خالد ويمسك بعمامته حين استحيا أبو عبيدة بن الجراح من تنفيذ أمر الفاروق ويقول له : نطيع أمراءنا ونكرم سادتنا [1].

وقد التقط شاعرنا تلك الصفة (المملوكية) ليُعلِي من شأن خالد فقد تلقى صنيع بلال به برحابة صدر ورضاء نفس، وقد كان هذا الصنيع كفيلا بأن يستثير

(١) ينظر :?لكامل في?لتا?يخ ، لابن?لأثير : ٢ / ٣٥٩ ، تحقيق: عمر عبد?لسلا? تدمر? ، ???لكتا ??لعربي، بير? ? – لبنا? ،?لطبعة:?لأ?لى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧? .

حفيظته، وأن تصب قبيلته جامَّ غضبها على الفاروق انتصارا لفارسها ورجلها الذي تفخر به، وتستدعيه سندا لها وقت الشدائد، ولكن ما حدث أدنى شيء من ذلك، ولذلك يكني شاعرنا عن هذا المعنى في الشطر الثاني بقوله : (ولا تحرك مخزوم عواليها) وهو كناية عن عدم ثورة قبيلة خالد على عمر انتصارا لقائدها.

وقد آثر شاعرنا الأسلوب الكنائي هنا لما يحمله من دليل واضح وبرهان ساطع على دعواه، فضلا عمَّا أفاده التصوير الكنائي من تصوير مجسِّم لموقف قبيلة مخزوم، إذ يلزم من عدم تحريكها لرماحها عدم ثورتها على عمر والانتصاف لخالد.

والمعنى المكني به هنا مقصود مع المكني عنه، وذلك مما يبالغ في التصوير وإثبات المعنى.

وفي البيت الخامس :

أَلقـى القِيـادَ إِلـى الجَـرّاحِ مُمتَـثِلاً وَعِـزَّةُ الـنَفسِ لَـم تُجـرَح حَواشـيها

قوله (ألقى القياد) كناية عن الرضا التام والتسليم المطلق، ويبدو أن شاعرنا حريص على الكشف عن الموقف النفسي لدى خالد تجاه هذا الأمر الخطير، ولذلك يؤثر الأسلوب الكنائي الماتع في قوله : (وَعِزَّةُ النَفسِ لَم تُجرَح حَواشيها) وهو كناية عن الانقياد التام لأمر الفاروق برضا نفس وطيب خاطر دون أدنى تأثر.

وضاعف من جمال التصوير الكنائي هنا تعانقه مع التصوير الاستعاري القائم على تشبيه (عزة النفس) بالجسم الذي أُصِيب بالجروح، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الفعل (تجرح).

ولا شك أن تعانق أداتين من أدوات التصوير من أجل الكشف عن معنى واحد أبلغ وأقوى في حمل المخاطب على إدراك كل جزئية من الجزئيات المراد تصويرها، والجناس الواقع بين " الجراح " " وتُجرح " مما ينغم الأسلوب وينضده.

وتتوالى الكنايات الدالة على موقف خالد فيقول حافظ :

وَانضَمَّ لِلجُنـدِ يَمشـي تَحـتَ رايَتِـهِ وَبِالحَيـــاةِ إِذا مالَـــت يُفَـــدّيها

ففي قوله : (يَمشي تَحتَ رايَتِهِ) كناية عن الخضوع التام والامتثال الكامل، حيث سار وراء القائد الجديد أبي عبيدة عامر بن الجراح يعاونه ويؤازره.

وقد تجلت بلاغة تلك الكناية في تصويرها لموقف خالد، ورد فعله لما حدث مصحوبا ذلك بالبرهان والدليل، حيث رأينا من خلال منطوق تلك الجملة الكنائية خالدا ينطوي تحت لواء قائده سمعا وطاعة.

وإيثار التعبير بالجملة الحالية المصدرة بالفعل المضارع (يمشي) إمعان في التصوير مما يزيد الموقف وضوحا وجلاء.

والتعبير بالفعل (انضم) فيه إيحاء واضح بالالتحام الفعلي مع الجند، كأحد أفراده، وقد أبان عنه أيضا – التعبير بلام الاختصاص [1] (للجند) دون أن يقال : وانضم إلى الجند أو مع الجند بحرف المعية.

---

(١) ينظر : معاني?للا? في :?لجني?لد?ني في حر? ??لمعاني للمر?? ? : ٩٦ – ١٠٩ ، تحقيق : ? / فخر ?لدين قبا?? ، ?? / محمد نديم فاضل ، منشو?? ? : محمد على بيضو? ، ???لى ، ???لـ كـ تب?لعلمية – بير? ? – لبنا? – ١٤١٣

وتتأكد براعة شاعرنا في التعبير ومقدرته الفائقة على تصوير معانيه بملاحظة القارئ الكريم لأسلوب القصر في الشطر الثاني (وَبِالحَياةِ إِذا مالَت يُفَدّيها) مما يؤكد غاية الرضا، بل والتضحية بالنفس في سبيل رفع الراية، وهذا يعني أنه ليس جنديا عاديا فحسب، بل هو على أهبة الاستعداد لبذل حياته ابتغاءً للنصر وفداءً للراية.

كما نلحظ أن هذه الجملة السابقة فوق ما أفاده أسلوب القصر بمثابة احتراس بليغ من شاعرنا، إذ ربما كان انضمام خالد تحت لواء الجيش انضمام الخانع الذليل فيكون بلا جدوى أو قيمة، أو يكون انضمامُه عقبة كؤوداً في سبيل النصر، فيكون عنصر هزيمة في صفوف الجند وهذا ما دفعه شاعرنا، ولاشك أن كل هذه المعاني وثيقة الصلة بما يرمي إليه الشاعر من خلال إيثاره أسلوب الكناية.

وما زال شاعرنا يركز على الجانب النفسي لدى خالد بن الوليد تجاه الفاروق فيقول :

وَمـا عَرَتـهُ شُـكوكٌ فـي خَليفَتِـهِ وَلا ارتَضـى إِمـرَةَ الجَـرّاحِ تَمويهـا

وقد حفل كل شطر في البيت على كناية تدل على معنى واحد، وهو اقتناع خالد بصنيع الفاروق في قرار عزله.

وإيثار الكناية في التعبير عن هذا المعنى دليل ساطع وحجة واضحة على عدم تأثره بذلك، واقتناعه التام بصنيع الفاروق، فنفي الشكوك لدى خالد تجاه خليفته، وكذلك نفي التمويه والخداع عنه، هما من أبين الأدلة على قناعته وإذعانه للقرار دون أن يسرَّ شيئا من العداء في نفسه، ويكشف حافظ عن سر ذلك فيقول :

هـ - ١٩٩٢ ?

فَخالِـدٌ كـانَ يَـدري أَنَّ صـاحِبَهُ قَـد وَجَّـهَ الـنَفسَ نَحـوَ اللهِ تَوجيهـا

والشطر الثاني من البيت (قَد وَجَّهَ النَفسَ نَحوَ اللَهِ تَوجيها) كناية عن إخلاص الفاروق وابتغائه وجه الله في كل ما يصدر عنه ؛ إذ يلزم من توجيه النفس نحو الله، إخلاصها في كل ما يصدر عنها.

وهذا التعبير الكنائي يكشف عن جو الحب والتلاحم بين الصحابيين الجليلين، وحرص كل منهما على الآخر، فالفاروق يعزل خالداً خشية افتتان الناس به، والمعزول ينزل على قراره مختارا مدركا أن ذلك ما كان منه إلا إرضاءً لله وإخلاصاً له، ومن هنا لم يجد خالد أفضل من الفاروق ليحمله الوصية بأولاده، فيقول حافظ :

لِـذاكَ أَوصـى بِـأَولادٍ لَـهُ عُمَـراً لَمّـا دَعـاهُ إِلـى الفِـردَوسِ داعيهـا

والشطر الثاني من البيت كناية عن وفاة خالد، إذ يلزم من دخوله الفردوس أنه قد لحق بربه – سبحانه –، وإيثار الكناية هنا على الحقيقة مما يتناسب مع مدح شاعرنا للفاروق، وفيها إشارة إلى البشرى بدخول خالد أعالى الجنان، وفيها – أيضا – إيحاء واضح بحب خالد للفاروق وعدم تعكير صفو العلاقة بينهما حتى آخر أنفاسه.

وبالتأمل فيما سبق من كنايات في تلك المقطوعة نجد أنها صوَّرت موقف كل من الصحابيين الجليلين بصورة ملفتة للنظر، وكان لها في كل موضع – بالرغم من قربها – تناغم وتناسق مع السياق، والمعاني التي يريد الشاعر إثباتها من وراء التركيب.

ثالثا : الكناية في تصوير عتاب الصحابة للفاروق في عزله لسيف الله المسلول، وبيان حجته في ذلك :

لاشك أن ما صنعه الفاروق من عزله لخالد بن الوليد من قيادة الجيش كان محل تساؤل من بعض الصحابة، إذ كيف يتسنى له ذلك ؟ والذي أعطي له القيادة الخليفة الأول لرسول الله (ﷺ) وما كان له أن يسلمه إياها عن محاباة أو مجاملة، بل لابد أن لديه من مؤهلات القيادة والريادة ما جعل الصديق يعطيه إياها.

والأبيات التي تصور ذلك هي :

وَقيلَ خالَفتَ يا (فاروقُ) صاحِبَنا ... فيهِ وَقَد كانَ أَعطى القَوسَ باريها
فَقالَ خِفتُ افتِتانَ المُسلِمينَ بِهِ ... وَفِتنَةُ النَفسِ أَعيَت مَن يُداويها
هَبوهُ أَخطَأَ في تَأويلِ مَقصِدِهِ ... وَأَنَّها سَقطَةٌ في عَينِ ناعيها
فَلَن تَعيبَ حَصيفَ الرَأيِ زَلَّتُهُ ... حَتّى يَعيبَ سُيوفَ الهِندِ نابيها
تَاللَهِ لَم يَتَّبِع في (اِبنِ الوَليدِ) هَوىً ... وَلا شَفى غُلَّةً في الصَدرِ يَطويها
لَكِنَّهُ قَد رَأى رَأياً فَأَتبَعَهُ ... عَزيمَةً مِنهُ لَم تُثلَم مَواضيها
ولَم يَرعَ في طاعَةِ المَولى خُؤولَتَهُ ... وَلا رَعى غَيرَها فيما يُنافيها
وَما أَصابَ اِبنَهُ وَالسَوطُ يَأخُذُهُ ... لَدَيهِ مِن رَأفَةٍ في الحَدِّ يُبديها
إِنَّ الَّذي بَرَأَ (الفاروقَ) نَزَّهَهُ ... عَنِ النَقائِصِ وَالأَغراضِ تَنزيها
فَذاكَ خُلقٌ مِنَ الفِردَوسِ طينَتُهُ ... اللَهُ أَودَعَ فيها ما يُنَقّيها
لا الكِبرُ يَسكُنُها لا الظُلمُ يَصحَبُها ... لا الحِقدُ يَعرِفُها، لا الحِرصِ يُغويها

والأبيات كسابقتها واضحة الدلالة على ما تحمله من معانٍ، وقد وردت الكناية فيها في عدة مواضع، وقد جاءت على النحو التالي :

ففي الشطر الثاني من البيت الأول تطالعنا الكناية عن صفة في قوله (وقد كان أعطى القوس باريها) وهي كناية عن توفر مؤهلات القيادة لدى خالد بما لديه من معرفة وحذق بشئون الحرب ومواجهة الأعداء.

وهي كناية رائعة تصور تصويرا دقيقا القدرة التي يتمتع بها خالد، وقد صورت لنا هذا الأمر المعقول في صورة محسة (إعطاء القوس لباريها) فهي مما يُرى بالعين، والصورة مع ذلك قريبة واضحة.

وضاعف من جمالها تولدها عن الاستعارة التمثيلية، والتي هي أبلغ أنواع المجاز، وتحتل المرتبة الأولى من مراتب الجمال، حيث شبَّه هيئة استعانة أبي بكر بخالد بن الوليد في قيادة الجيش بهذا المثل المشهور والذي يضرب في تفويض الأمر لمن يُحسنه ويجيده.

وهذا الصنيع لشاعرنا في دمجه للونين من ألوان البيان في بيانه عن الصورة الواحدة تأكيد لها، وإمعان في إعطاء المبالغة حقها.

وإذا كان شاعرنا قد استعان بالكناية عن صفة، فنراه يستعين بكنايتين من نوع آخر، وهما عن موصوف، والأولى في قوله (يا فاروق) وإيثار هذا الوصف في هذا السياق خاصة له دلالته على اشتهار عمر بنصرته للحق على الباطل، وهذا يعني أن ما كان له أن يقع في هذا الخطأ – من منظور بعض الصحابة – ويعدل عما ارتآه الخليفة الأول الصديق، وقد جاء قوله (صاحبنا) كناية عنه والتعبير بها دون : (الصديق) – أو (أبي بكر) له دلالته أيضا، إذ فيها تذكير بأقوى رابطة ترتبط بين الصحابة – رضوان الله عليهم – وهذا يستلزم من الفاروق مراعاة حق تلك الصحبة، والالتزام بما أبرمه أبو بكر.

ويتلمس شاعرنا علة للفاروق، فيقول ربما كان ذلك سقطة في عين البعض، والرجال لا تعيبهم ذلَّة، ولا تسقط من مكانتهم هفوة، فالمهم أن ما صدر منه لم يكن اتباعا لهوى النفس أو كان دافعه الغل والحقد تجاه صاحبه، ويقسم على ذلك فيقول :

تَاللهِ لَم يَتَّبِع في (ابنِ الوَليدِ) هَوىً وَلا شَفى غُلَّةً في الصَدرِ يَطويها

وكل شطر في البيت يدل على معنى كنائي واحد، وهو حسن النية وسلامة المقصد، وترجع بلاغة هاتين الكنايتين هنا أن كل واحدة منهما قدمت لنا المعنى " حسن النية وسلامة المقصد " مصحوبا بالدليل والبرهان، وأول دليل : أن عمر لم يكن أسير الهوى فيما صدر منه مِنَ الأمر بعزل الفاروق، والدليل الثاني : أنه لم يصدر أوامره بعزله عن حقد وحسد تجاهه وهذان – بلا شك – أبين أدلة على حسن نواياه وسلامة قصده.

وهذا مما يبرئ ساحة الفاروق فيما صنع، ويدفع عنه أية شائبة، وقد أكد شاعرنا هذا المعنى فوق ما أفاده الأسلوب الكنائي من توضيحه والمبالغة في تصويره، بإيثاره أقوى طرق التوكيد، وهي القسم، مع اختياره لأغرب صيغ القسم وأقلها استعمالا وشيوعا وهي صيغة (تالله)، وربما كان في هذا إيحاء بأن هذا المسلك لم يكن ليصدر إلا من القلة من الرجال الذين يخشون على قوّادهم من عجب النفس وفتنتها، وتنكير (هوى) و (غلة) مما يلقي بظلال كثيفة في هذا السياق، تأكيدا على حسن المقصد الذي دفع بالفاروق أن يفعل ما فعل.

وتأتي الكناية في البيت التالي :

لَكِنَّهُ قَد رَأى رَأياً فَأَتبَعَهُ عَزيمَةً مِنهُ لَم تُثلَم مَواضيها

وموطن الكناية في قوله : (عَزيمَةً مِنهُ لَم تُثلَم مَواضيها) كناية عن الصرامة والشدة، وفيها إيحاء واضح بعدم التراجع أو التردد في تنفيذ ما رآه صوابا وفي مصلحة الجيش وقائده.

وقد جاءت خصوصيات النظم معبرة ومؤكدة لما يرمى إليه شاعرنا من وراء المعنى، فتنكير (رأيا) للتفخيم والتعظيم، والتعبير بالفاء في (فأتبعه) دلالة على السرعة والمضي في التنفيذ، والتعبير بـ (عزيمة) يدل على الإصرار وأن الأمر ليس فيه مجال للمناقشة أو التردد.

ومما يُعْلي من شأن تلك الكناية ويضفي عليها مزيدا من الحسن والجمال تعانقها مع التصوير المجازي، حيث شبِّهت (العزيمة) بالسيوف البتارة، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو قوله : (لَم تُثلَم مَواضيها) أي : لم تكسر أشفارها.

ولاشك أن كل هذه الخصوصيات التعبيرية مما يجعل المعنى الكنائي يستقر في القلوب ويرسخ في الأذهان.

ويواصل شاعرنا كاشفا عن أخلاق الفاروق فيقول :

ولَم يَرعَ في طاعَةِ المَولى خُؤولَتَهُ ... وَلا رَعى غَيرَها فيما يُنافيها
وَما أَصابَ اِبنَهُ وَالسَوطُ يَأخُذُهُ ... لَدَيهِ مِن رَأفَةٍ في الحَدِّ يُبديها

وقد حفل كل بيت بكناية تدل على معنى واحد وهو : حزم الفاروق وشدته وصرامته في تنفيذ ما يرى فيه مرضاة الله ومصلحة الأمة، وعدم تقاعسه في تحقيق ذلك ولو على أقرب أقربائه.

وترجع بلاغة تلك الكناية أنها قدمت لنا تلك المعاني مصحوبة بدليلها مقرونة بما يبرهن على وجودها في شخصية الفاروق، وقد عرض شاعرنا دليلين :

الدليل الأول : أن الفاروق لم يعتد بما بينه وبين خالد من حق القرابة، وذلك لأن أم عمر هي حنتمة بِنْت هاشم بن المغيرة بن عَبْد الله بن عُمَر بن مخزوم[1]، وبنو مخزوم هم قبيلة خالد، وهذا يعني أنهم أخواله، وقد كانت هذه القرابة مدعاة لأن يتريث في قراره ويراعي حقها أو يجاملها.

والدليل الثاني : أنه لم تساوره الرأفة والشفقة عندما طبق حد الشرب على ولده (عبد الرحمن)، وقد مرض بعد ذلك ومات.

ولاشك أن عدول الشاعر عن صريح المعنى إلى الكناية عنه بسوق الأدلة الدالة عليه أبلغ في إثباته وأبين في إيضاحه.

وكان حافظ بارعا ودقيقا في صياغة دليله الثاني، حيث لم يقل : وما اعترض على تنفيذ الحد على ابنه، أو : ما تقاعس عن تطبيق الحد على ابنه ؛ لأن مثل هذه التعبيرات لا تمنع أن تكون ساورته رحمة أو شفقة بابنه، ولكن شاعرنا نفى ما هو أهم في مثل

(١) ينظر :?لطبقا ??لكبر ?، لمحمد بن سعد بن منيع?بو عبد? لله ?لبصر ??لزهر ? : ٣ / ٢٠١ ، تحقيق : محمد عبد ?لقا?? عطا ، ???لكتب ?لعلمية – بير? ? ، ?لطبعة ?لأ?لى ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ ? .

هذه المواقف، وهو الرأفة ذاتها، وهذا له دلالته الواضحة على صرامته وإعزازه للحق، كما يبرز قوة شخصيته وعدم تهاونه في سبيل إحقاق الحق، وما يراه صوابا.

ولاشك أن ذلك له دلالته على بالغ حسن أخلاقه، ولذا يقول حافظ :

فَـذاكَ خُلـقٌ مِـنَ الفِـردَوسِ طينَتُـهُ اللّهُ أَودَعَ فيهـــا مـــا يُنَقّيهـــا

والشطر الأول من البيت : كناية عن تخلق الفاروق بأخلاق أهل الجنة، ولا يخفى على القارئ الكريم ما لتلك الكناية الماتعة من دور عظيم في الكشف عن أخلاق الفاروق مصحوبا ذلك بأبلغ دليل وأعظم برهان، إذ يلزم من أن يكون خلقه من طينة أعالي الجنان (الفردوس) أن أخلاقه في غاية الكمال، وهو بهذا الصنيع يرقى بالفاروق عن أخلاق أهل الأرض إلى هذا الأفق السامي المنزه عن النقائص والأغراض والذنوب والآثام.

ولم يكتف شاعرنا في التدليل على حسن خلق الفاروق بما أعطاه الأسلوب الكنائي من إيحاءات، بل نرى لبنات البيت كلها جاءت مدعمة لما يرمي إليه من معان، فالتعبير باسم الإشارة (فذاك) تعظيم وتفخيم من شأن تلك الأخلاق السامية، كما ينبئ أنها تخطت الأشياء المعنوية حتى يُخيَّل أنها صارت شيئاً محساً يشار إليه.

يضاف إلى ذلك : أن شاعرنا أراد أن يميِّز أخلاق الفاروق المشار إليها باسم الإشارة (فذاك) تمييزا كاشفا ويحددها تحديدا ظاهرا، وذلك رغبة منه في الاعتناء بالحكم عليها بهذا الخبر المتفرد في جنسه (خُلقٌ مِنَ الفِردَوسِ طينَتُهُ)، ولا شك أن ذلك مما يمنح هذا الخبر مزيدا من القوة والتقرير.

كما تأمل تنكير (خلق) وما يشعرنا به من معاني العظمة والتفرد بهذا السمو الأخلاقي ؛ لأن منبعه – كما يقول – (مِنَ الفِردَوسِ)، ولذلك قدّم هذا القيد

اهتماما به، وكأن أخلاق أهل الأرض تضؤل، بل وتنعدم أمام ما تفرد به من أخلاق أهل الجنان !!

وبهذا تكاتفت عناصر النظم جميعها وجاءت كاشفة عن سمو أخلاقه وقد أبان شاعرنا عن بعضها بالأسلوب الكنائي في البيت الأخير من تلك المقطوعة فقال :

لا الكِبرُ يَسكُنُها، لا الظُلمُ يَصحَبُها لا الحِقدُ يَعرِفُها، لا الحِرصِ يُغويها

وقد اشتمل البيت على أربع كنايات، وجاءت جميعها كناية عن نسبة، حيث نفى عن طينة الفاروق– والتي منبعها الفردوس وهي قطعة منها – أن يسكنها الكبر أو يصحبها الظلم أو يعرفها الحقد أو يغويها الحرص، ويلزم من ذلك نفي هذه الصفات عن الفاروق، ولاشك أن عين شاعرنا ترنو من وراء تلك التراكيب أن تثبت للفاروق أضداد تلك الصفات بآكد طريق ؛ لأن (طينة الفاروق) ليست محلا صالحا في الأصل لأن يتعلق بها تلك الصفات، فوجب أن تقوم بالفاروق ذاته.

كما نلحظ أن نفي هذه الصفات عن طينة الفاروق أبلغ من إثباتها، فما جاء في البيت أبلغ من قولنا : التواضع يسكنها، والعدل يصحبها، وصفاء النفس يعرفها، والزهد ديدنها، لأن إثبات هذه الصفات لا ينفي مصاحبة شيء من أضدادها، بخلاف ما جاء عليه النظم في البيت.

وهذا يكشف عن تأنق حافظ وبراعته في إثبات صفات التواضع والعدل وصفاء النفس وحبها للآخرين وزهدها في ملذات الدنيا وشهواتها من أبلغ الطرق وأوكدها.

كما أن ما جاءت عليه الصياغة في البيت يضفي مزيدا من التأكيد على نفي هذه الصفات، ومن أبرز خصائصها، تكرار حرف النفي (لا)، وكذلك كان للفصل بين جمل تلك الكنايات دلالته على استقلال كل صفة من تلك الصفات، كما لا يخفى على القارئ هذا التلاؤم الواضح بين جمل البيت حيث جمع الشاعر بين عدة معان متلائمة في جمل مستوية المقادير [1]، وكانت عاملا قويا في حسن الكلام وجودته، وجعلت نسق البيت مؤتلفا في شكله ومضمونه وجرسه وموسيقاه.

الكناية في تصوير موقفه من الصحابي الجليل (عمرو بن العاص)

إن من أهم ما تميزت به الشخصية العمرية هي شجاعته، فقد كان شجاعا في إعلان إسلامه، شجاعا في دفاعه عن الدعوة، وكذلك كان شجاعا في تصديه لكل غني طارئ، لا يُعرف له مصدر، مما يفتح الباب أمام استغلال النفوذ، أو ما يُعرف بلغة اليوم بـ (مزاوجة المال بالسلطة)، ولا شك أن هذا أول ما يعكر صفو السلم الاجتماعي ويشيع الحقد والضغينة بين أفراد المجتمع، ويفتح الباب على مصراعيه أمام الفساد والاستبداد، وهذا هو الداء العضال الذي نعانيه اليوم.

ولم ينس شاعرنا في تلك العمرية أن يكشف عن موقف الفاروق من سيدنا عمرو بن العاص عندما نمى إلى علمه كثرة أمواله حينما ولاه على مصر، فكتب إليه قائلا : إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر، فكتب إليه عمرو : إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج إليه لنفقتنا، فكتب إليه : إني قَدْ خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إِلَيَّ

(١) ?هذ? يعر ? في علم ?لبديع بـ (?لتفويف) ، ينظر : ?لإيضا ? للخطيب ?لقز?يني : ٦ / ٢٣ .

كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سُؤْت بك ظنا، وقد وجهت إليك مُحَمَّد بْن مسلمة ليقاسمك مَالك، فأَطلعْه عليه، وأخْرِج إليه ما يُطالبك به، واعْفِه منَ الغلظة عليك، فلم يسع عمرو بن العاص على دهائه، وعلو مكانته، وبعده عن أمير المؤمنين إلا الخضوع لما أمره به ومقاسمة ابن مسلمة ماله [1]، فرحم الله أمثال هؤلاء العظام، وإلى هذه القصة يشير حافظ في تلك الأبيات :

شـاطَرتَ داهِيَـةَ السُـوّاسِ ثَروَتَـهُ	وَلَـم تَخَفـهُ بِمِصـرٍ وَهـوَ واليهـا
فأَنـتَ تَعرِفُ (عَمـراً) فـي حَواضِـرِها	وَلَستَ تَجهَلُ (عَمراً) فـي بَواديهـا
لَم تُنبِتِ الأَرضُ كَابنِ العاصِ داهِيَـةً	يَرمي الخُطوبَ بِرَأيٍ لَيسَ يُخطيهـا
فَلَـم يُـرِغ حيلَـةً فيمـا أَمَـرتَ بِـهِ	وَقامَ (عَمرٌو) إلى الأَجمالِ يُزجيهـا
وَلَـم تُقِـل عـامِلاً مِنهـا وَقَـد كَثُـرَت	أَموالُـهُ وَفَشـا فـي الأَرضِ فاشـيها

وقد اتكأ شاعرنا على الأسلوب الكنائي في تصويره لهذا الموقف فقوله في البيت الأول (داهِيَةَ السُوّاسِ) كناية عن عمرو بن العاص، وقد آثر شاعرنا تلك الكناية عنه على اسمه الصريح، وذلك لما توحيه من خطر عمرو بن العاص، فقد اشتهر بالذكاء والدهاء، وأنه سياسي بارع، وكل هذه المعاني التي ينبئ عنها اللفظ الكنائي كانت ينبغي أن تجعل عمر يتريث في مواجهة رجل مثله، لأن ذلك ربما يكون مصدر تأليب وإثارة للمشاكل، وتعكيرٍ لصفو سلطانه، وينتقي حافظ اللفظة الدالة على ما يريد فيؤثر صيغة المبالغة (السُوّاسِ) دون : (داهية السياسة)، مبالغة في شدة خطره، فهو ليس رجلاً سياسياً فحسب، بل هو رجل الساسة الأول، وهذا التصرف من عمر تجاهه كان من الممكن أن يعرضه لما لا تحمد عواقبه.

---

(١) ينظر ?لقصة في : فتو??لبلد?? ، ل?حمد بن يحيى بن جابر بن ????لبلا?? ? : ٢١٧ ، ?? ?مكتبة?لهلا?- بير? ? ، ١٩٨٨ ? .

ولذلك تطالعنا الكناية عن صفة في الشطر الثاني (ولم تخفه بمصر وهو واليها) وهي كناية عن صفة الشجاعة التي تميزت بها شخصية الفاروق، والتعبير عن تلك الصفة بعدم الخوف من عمرو وهو والي مصر أبلغ في بيانها والدلالة عليها من لفظها الصريح، لما في اللفظ الكنائي من دليل وبرهان واضحين في الدلالة عليها، كما أن ورود تلك الجملة الحالية في سياق تلك الكناية (وهو واليها) مما يزيد المعنى الكنائي وضوحا وجلاء، فهو ليس واليا على بلد عادي، بل على مصر، وولاية مصر – كما يقال – تعدل الخلافة، مما يعني أن عمر عندما تصرَّف هذا التصرف كان عليه أن يحسب الأمر ويزنه بميزان السياسة والقوة.

ولذلك يقول شاعرنا مخاطبا الفاروق :

فأَنتَ تَعرِفُ (عَمراً) فـي حَواضِرِها وَلَستَ تَجهَلُ (عَمراً) فـي بَواديهـا

والبيت كناية عن ذيوع صيت عمرو في الحنكة والدهاء وشهرته بذلك، وهذا يعني أنه ليس بالرجل العادي أو الرجل المغمور الذي لا يخشى بأسه أو خطره، بدليل أن عمر ذاته يعرفه في الحاضرة، ولا يجهل مكانته ومنزلته في البادية.

ومما يُعلي من بلاغة تلك الكناية اعتمادها على أسلوب المقابلة الكاشف عن شخصية عمرو بن العاص، وقد جاءت مطبوعة سلسة غير متكلفة ولا مصطنعة، وأظهرت المعنى الكنائي واضحا قوياً.

وتتوالي الكنايات الكاشفة عن شخصية عمرو بن العاص، وذلك في البيت الثالث :

لَم تُنبِتِ الأَرضُ كَابنِ العاصِ داهِيَةً يَرمي الخُطوبَ بِرَأيٍ لَيسَ يُخطيها

والبيت بتمامه كناية عن تفرد الفاروق بشدة الذكاء والدهاء في مواجهة الشدائد والخطوب.

ومما ساعد التصوير الكنائي على أداء المعنى وبيانه من خصائص النظم في البيت تعانق الاستعارة التصريحية التبعية مع الكناية في قوله (لم تنبت) حيث استعير الإنبات الحسي لظهور عمرو ووجوده، ثم اشتق من الإنبات (تنبت) بمعنى (تُظْهِر)، والتعبير فيه إيحاء بالقطع والجزم بعدم وجود مثل عمرو في هذا الوصف، وأنه تفرد على كل الخلائق بالمكر والدهاء، وأنه تخطى كل الأزمنة، وفاق كل البشر، ولذلك أسند الإنبات للفظ (الأرض) معرَّفة مما يفيد مطلق العموم الزماني والمكاني.

وإذا كانت الكناية السابقة تكشف عن ذكاء الفاروق ودهائه في مواجهة الخطوب والأحداث، فتأتي الكناية في الشطر الثاني (يَرمي الخُطوبَ بِرَأيٍ لَيسَ يُخطيها) كناية عن سداد رأيه وفطنته في مواجهتها.

وتأخذ هذه الكناية شكلا آخر من أشكال الجمال حين وشَّحها الشاعر بالاستعارة المكنية في (يرمي الخطوب) حيث شبه الخطوب بعدو توجَّه إليه السهام، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله : (يرمي) وفيها دلالة واضحة على فطنة عمر وصواب رأيه في مواجهة الشدائد والصعاب.

وبتلك الصياغة الرائقة في البيت، والتي استجمع فيها شاعرنا جُلَّ طرائق البيان، يتضح جليا قدرته الفنية على تصوير المعنى الذي يرمي إليه، مما أدى إلى وضوح الصورة الكنائية من جميع زواياها.

الكناية في تصوير موقفه من ولده (عبد الله)

رحم الله عمر بن الخطاب، فقد كان قدوة لكل حاكم صالح، ومثلا أعلى لكل من يبغي العدالة بين أفراد أمته والسهر على مصلحة رعيته، والوقوف في وجه قرابته وتقليم أظافرهم حين تبدو منهم مظاهر لاستغلال السلطة، وهو بهذا يضرب المثل في قطع الألسنة حتى لا يتحدث عنهم أحد بأنهم أَثْروا في ظلال حكمه على حساب الرعية الكادحة.

والأبيات التي معنا في تلك المقطوعة تعد من أروع ما سطرته يد التاريخ في حق هذا الصحابي الجليل، فيُروي أنه رأى ذات مرة أينُقاً أعجبته، لما بدا عليها من آثار النعمة، فسأل منْ صاحبها ؟، فقيل : عبد الله – يعني : ابنه، فما كان منه إلا أن ساقها إلى بيت المال خشية أن يكون ابنه قد انتفع بجاهه في تنميتها واستفاد بسلطة أبيه في تربيتها، ورحم الله شاعرنا إذ يقول :

وَمـا وَقـى ابنُـكَ عَبـدُ اللهِ أَينُقَـهُ ... لَمّـا اطّلَعـتَ عَلَيهـا فـي مَراعيهـا
رآهـا فـي حِمـاهُ وَهـيَ سـارِحَةٌ ... مِثـلَ القُصـورِ قَـد اهتَـزَّت أَعاليهـا
فَقُلـتَ مـا كـانَ عَبـدُ اللهِ يُشـبِعُها ... لَـو لَـم يَكُـن وَلَـدي أَو كـانَ يُرويهـا
قَـدِ اِسـتَعانَ بِجـاهي فـي تِجارَتِـهِ ... وَبـاتَ بِاسـمِ أَبـي حَفـصٍ يُنَمّيهـا
رُدّوا النِيـاقَ لِبَيـتِ المـالِ إِنَّ لَـهُ ... حَـقَّ الزِيـادَةِ فيهـا قَبـلَ شـاريها
وَهَـذِهِ خُطّـةٌ لِلَّهِ واضِـعُها ... رَدَّت حُقوقـاً فَأَغنَـت مُسـتَميحيها
مـا الإِشـتِراكِيَّةُ المَنشـودُ جانِبُهـا ... بَينَ الوَرى غَيرَ مَبنـيً مِن مَبانيهـا
فَـإِن نَكُـن نَحـنُ أَهليهـا وَمَنبتهـا ... فَـإِنَّهُم عَرَفوهـا قَبـلَ أَهليهـا

والأبيات تصور القصة بتمامها، وتبين موقف الفاروق في وضوح تام، في كيفية تصديه لهذا المظهر من مظاهر الغنى الطارئ على ولده ظنا منه أنه قد استعان بجاهه في هذا الإثراء.

وقد جاء الأسلوب الكنائي فيها في عدة مواضع :

ففي البيت الثاني قوله : (قَدِ اهتَزَّت أَعاليها) كناية عن ضخامة هذه النياق لما يبدو عليها من آثار الشبع ووفرة الخير.

وقد تألقت الكناية هنا في تصوير مظهر تلك الإبل، وقد أبانت عن ذلك المعنى من خلال الدليل والبرهان الحسيين، إذ يلزم من اهتزاز أعاليها ضخامة أحجامها.

وقد تعانق التشبيه الواقع في البيت في قوله : (مثل القصور) مع تلك الكناية في الإيحاء بضخامة تلك الإبل، وإيثار أداة التشبيه (مثل) دون غيرها، لمناسبتها لما يقصده الشاعر من معنى، فهي مستعملة هنا في مطلق المماثلة، في الهيئة والصورة، دون الاتفاق في الجنس [1]، واختيار المشبه به (القصور) وما تشتهر به من زينة يتناسب أشد المناسبة مع ماأراد الشاعر إبرازه وهو زينة تلك النياق وجمالها.

كما جاءت جملة الحال (وهي سارحة) وصفا كاشفا يبرز أنها مظهر إعجاب لكل راءٍ وملفتة لكل ناظر.

والكناية السابقة وإن كانت قريبة واضحة لا تحتاج إلى كثير من إعمال الذهن في إدراكها والوقوف عليها، إلا أنها تدل على قدرة الشاعر في التقاط الصورة من جوانب

(١) ينظر : ???? ? ?لتشبيه ??لا لاتها ??ستعمالاتها في ?لقر?? ?لكريم، ?/محمد موسى حمد?? : ٦٢ ، مطبعة ?لأمانة ،?لطبعة ?لأ?لى – ١٩٩٢ ? .

متعددة، متكأ عليها وعلى غيرها من وسائل التصوير البياني، إمعانا منه في إبراز المعنى وقصدا إلى الوضوح والبيان.

ثم يبرز حافظ موقف عمر في وضوح تام، حيث أمر برد النياق إلى بيت المال على أن يأخذ ابنه رأس ماله فقط عندما اشتراها خشية أن يكون استعان بجاهه في تنميتها فيقول :

وَهَـــذِهِ خُطّـــةٌ لِلَّهِ واضِـــعُها رَدَّت حُقوقـاً فَأَغنَـت مُسـتَميحيها

وقد كنى حافظ عن صنيع سيدنا عمر الدال على حرصه على إرساء مبدأ عدم استغلال النفوذ بلفظة (خطة) وهي كناية عن صفة، وفيها إيحاء واضح بحكمة الفاروق وفطنته في مواجهة هذا الموقف، كما تشعرنا بدوره البارز في إرساء مبدأ العدالة الاجتماعية وتوطيد أركانها في الدولة الإسلامية آنذاك.

وتنكير (خُطَّةٌ) فيه إيحاء بالتعظيم والتفخيم من شأنها لما يترتب عليها من إرساء العدالة الاجتماعية وسد حاجة الفقراء والمحتاجين والمعوزِين، ولذا يبين أثرها فيقول : (رَدَّت حُقوقاً) ويرتب عليها بالفاء هذا الأثر الإيجابي لصنيع الفاروق في مواجهته لما اعتقد أنه استغلال للنفوذ فيقول (فَأَغنَت مُستَميحيها) وهي كناية عن إرساء مبدأ العدالة الاجتماعية بين أفراد الرعية.

وهي كناية رائعة دلت على مراد الشاعر وأثبتت المعنى المقصود مصحوبا بالدليل والبرهان ؛ لأن إغناء الفقراء والمحتاجين عن استجداء ما يسد حاجتهم، بعيداً عن مذلة السؤال لأكبر دليل وأعظم برهان على تحقق العدالة الاجتماعية والتي أحاطت ظلالُها على هؤلاء الفقراء والمحتاجين، فشعروا بالعزة والكرامة التي ينشدها الإسلام

لهم، والتي يتغنَّى بها البعض في تلك الأزمنة المتأخرة تحت اسم الاشتراكية، ولذا يقول حافظ :

مــا الاشــتِراكِيَّةُ المَنشــودُ جانِبُهــا بَينَ الـوَرى غَيرَ مَبنـىً مِن مَبانيهـا

وتطالعنا الكناية في قوله : (غَيرَ مَبنىً مِن مَبانيها) وهي كناية عن التقارب الواضح بين المذهب الاشتراكي المعروف، والذي يهدف إلى عدالة توزيع الثروة، وبين ما طبقه الفاروق من إرساء مبدأ العدالة الاجتماعية والذي يهدف في نهايته إلى القضاء على التفاوت الطبقي الشاسع بين أفراد المجتمع.

وحين نتأمل البناء التركيبي لهذه الكناية يتضح لنا براعة الشاعر في نسجها حيث جاءت جملة تلك الكناية في موقع المقصور عليه (غَيرَ مَبنىً مِن مَبانيها) تأكيدا على أن هذا المذهب المعروف بـ (الاشتراكية) ما هو إلا مذهب أرضي مقتبس من هذا المبدأ الإسلامي العظيم الذي طبقه الفاروق على أقرب أقربائه.

ومما يبرز روعة تلك الكناية ويكشف عن جمالها هذا التعانق الواضح بينها وبين تلك الاستعارة المكنية الماتعة في الضمير العائد على لفظة (خطة) في قوله : (غَيرَ مَبنىً مِن مَبانيها) أي : من مباني تلك الخطة، حيث شُبِّهت تلك الخطة بصرح عظيم يُلْفِت الأنظار، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو لفظ (مبانيها).

وهذا التصوير يؤكد في صورة محسة أن تلك الاشتراكية التي يتشدق بها الغرب وأذنابهم في أرض الإسلام، ما هي إلا فكر مأخوذ من نظامنا الإسلامي في نظرته للمال وتوزيع الثروات، وأنَّ كل ما يبغيه الناس من الاشتراكية في النظم الإسلامية،

ولكن بصورة أسمى وأعدل، ومع ذلك كان منا – نحن المسلمين – تلك المفارقة الواضحة، والتي أبان عنها الشاعر في بيته الأخير من تلك المقطوعة :

فَـإِن نَكُـن نَحـنُ أَهليهـا وَمَنبِتَهـا فَـإِنَّهُم عَرَفوهـا قَبـلَ أَهليهـا

وتأتي الكناية في قوله : (فَإِنَّهُم عَرَفوها قَبلَ أَهليها) كناية عن تطبيق الغرب لهذا المبدأ في حين تخاذل المسلمون في تطبيقه، حتي صار عندنا مجرد شعار نظري بعيداً عن التطبيق على أرض الواقع.

والصورة الكنائية فيها نقد لاذع بواقع تلك الأمة، حيث صارت في كثير من شئونها أمة كلام وشعارات، بعيدة عن التطبيق والأفعال، وإلى جانب آخر من جوانب تلك الشخصية العمرية الرائعة في المقطوعة التالية.

الكناية في تصوير تأثر رسول (كسرى) بحال (الفاروق) حين رآه بين رعيته

إذا كان (حافظ) في أبياته السابقة أشار إلى ملمح عظيم تميزت به الشخصية العمرية، وهو العدل وعدم المحاباة والمجاملة حتى مع أقرب أقربائه، فنراه يشير – هنا – إلى ملمح آخر نرى فيه روعة الجانب الإنساني في حياة هذا الصحابي الجليل، وهو عدم الزهو والاغترار بمقام الخليفة ؛ لأن الخلافة عنده مسئولية وأعباء، ولذلك عاش بين الرعية كواحد منهم ؛ لا يميزه ملبس أو مركب أو مجلس، وما اغتر يوما بشيء من أبهة الخلافة ومظاهرها، مما كان له أكبر الأثر على كل من رآه ممن لم يكن له سابق معرفة به.

ولذلك نجد (حافظاً) يشير إلى ما يُرْوى من أنَّ رسولَ كسرى لما وصل إلى المدينة يريد مقابلة الخليفة جعل يسأل عن قصره، فعلم أنه لا يسكن قصرا، وانتهى به الأمر إلى أن وصل إلى بيت كبيوت أفقر العرب، وهناك كان الخليفة العظيم راقدا على الرمل أمام بيته، جاعلا منه وسادة أسند إليها رأسه، ولم يكن حوله من مظاهر هذه الحياة ما يميزه من أقل فرد في رعيته، فلما رأى الرسول ذلك دهش، ووقف أمامه خاشعا، وقال عبارته المشهورة، عدلت يا عمر وأمنت فنمت [1]، وإلى هذه القصة يشير حافظ في عمريته فيقول :

(١) ينظر ?لقصة في : فتو??لشا? ، للو?قد? : ١ / ٨٥ ، ???لكتب?لعلمية ، ?لطبعة :?لأ?لى ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧? .

وَراعَ صاحِبَ كِسرى أَن رَأى عُمَراً ... بَينَ الرَعِيَّةِ عُطلاً وَهوَ راعيها
وَعَهدُهُ بِمُلوكِ الفُرسِ أَنَّ لَها ... سوراً مِنَ الجُندِ وَالأَحراسِ يَحميها
رَآهُ مُستَغرِقاً في نَومِهِ فَرَأى ... فيهِ الجَلالَةَ في أَسمى مَعانيها
فَوقَ الثَرى تَحتَ ظِلِّ الدَوحِ مُشتَمِلاً ... بِبُردَةٍ كادَ طولُ العَهدِ يُبليها
فَهانَ في عَينِهِ ما كانَ يَكبُرُهُ ... مِنَ الأَكاسِرِ، وَالدُنيا بِأَيديها
وَقالَ قَولَةَ حَقٍّ أَصبَحَت مَثَلاً ... وَأَصبَحَ الجيلُ بَعدَ الجيلِ يَرويها:
أَمِنتَ لَمّا أَقَمتَ العَدلَ بَينَهُمُ ... فَنِمتُ نَومَ قَريرِ العَينِ هانيها

والأبيات السابقة تركز على عدم تميُّز (عمر) عن غيره من أفراد رعيته، وكان للكناية دورها في التدليل على هذا المعنى.

فقوله : (أَن رَأى عُمَراً بَينَ الرَعِيَّةِ عُطلاً) كناية عن عدم وجود ما يميزه عن أفراد الرعية، وذلك لأن وجوده بين الرعية متجردا من كل مظاهر العظمة والأبهة التي يظهر بها الملوك والأمراء، يستلزم عدم تميزه عنهم، وأنه كأقل فرد فيهم.

وتظهر دقة الشاعر في اختياره لألفاظه المعبرة عن معناه الكنائي، فإيثاره التعبير باسمه الصريح (عمر) دون غير ذلك من الألقاب كالفاروق أو الكنية (كأبي حفص) له دلالته في هذا السياق، لما في التعبير بالاسم الصريح هنا من التأكيد على أنه لا يمتاز عنهم في قليل ولا كثير، فهو (عمر) فحسب، وموطن تعجب ودهشة رسول (كسرى) هو الظرف (بين الرعية).

وفيه إيحاء واضح بتواضعه معهم، وعدم تميزه عنهم، ولو قال : بين المسلمين أو بين الناس لما أفاد هذا المعنى، وتزداد درجة الإثارة والتعجب بالقيد (عطلاً) فهو متجرد عن كل ما يميزه عن أفراد رعيته، فربما كان موجودا بين الرعية ولكن مع حفاظه على ما يقتضيه مقام السلطان والملك، فجاء هذا القيد ليدفع ذلك الاحتمال، وتبلغ الإثارة ذروتها بجملة الحال (وهو راعيها)، إذ كيف يلتقي الراعي مع الرعية هكذا دون أن تكون له هيئة تميزه عنهم، أو تكون له أسوار عازلة بينه وبينهم من الجند والحراس مما هو معهود عند الملوك ؟، ولذلك يقول حافظ في البيت التالي :

وَعَهــدُهُ بِمُلــوكِ الفُــرسِ أَنَّ لَهــا سوراً مِنَ الجُندِ وَالأَحراسِ يَحميها

وقوله : (أن لها سوارا...) كناية عن عزلتهم عن الرعية وعدم اختلاطهم بها، وهي كناية قريبة، إذ يلزم من اتخاذ هؤلاء الملوك كثرة من الجند والحراس لحمايتهم عزلتهم عن الرعية.

والكناية هنا فيها إيحاء بشدة حذرهم وبالغ حيطتهم من جانب الرعية، كما تشي بتكبرهم وتعاليهم عليها، وقد جاءت لتعقد مقارنة واضحة ومقابلة كاشفة بين الفاروق وغيره من الملوك، فإذا كان الفاروق (بين الرعية)، فالعهد بملوك الفرس أن لها أسوارا من الجند تحول بينهم وبين الرعية، والتعبير بـ (سُوراً) تعبير مجازي، حيث استُعِير للكثرة العددية من الجنود المكلفين بحراستهم، وذلك مما يلقي بظلال الحيطة والحذر، وتزداد أكثر بإيثار جمع الجمع في (الجند) دون (الجنود)، وكذلك صيغة الجمع في (الأحراس)

دون (الحراس) لما في الأولى من زيادة المبنى، مما يدل على زيادة المعنى [1].

وكل هذه الخصائص النظمية تكشِّف من معاني المفارقة بين هؤلاء الملوك، وبين صنيع الفاروق مع رعيته، والتي كان من ثمرتها كما يقول :

رَآهُ مُستَغرِقاً في نَومِهِ فَرَأى فيهِ الجَلالَةَ في أَسمى مَعانيها

فقوله (مُستَغرِقاً في نَومِهِ) لا يقصد شاعرنا حقيقة هذا التركيب، بل ترنو عيناه إلى ما وراءه من تصوير إحساس الفاروق بالأمن، وهي كناية قريبة لا تحتاج عناء في استخراجها، فإن الاستغراق في النوم يستلزم الإحساس بالأمن وعدم الحذر من الرعية.

وقد تجلت براعة الشاعر في إيثاره التعبير باسم الفاعل (مستغرقا) لما فيه من الدلالة على معنى الثبوت والدوام، وهذا آكد في الدلالة على معنى الإحساس بالأمان دون الفعل (يستغرق).

ويرى رسول (كسرى) خليفة من طراز فريد، لم تعهد عيناه أن تقع على مثله، ويعبر شاعرنا عن ذلك فيقول : (فرأى فيه الجلالة)، و (الجلالة) كناية عن موصوف، وهي الخلافة والملك، والتعبير بالموصوف فيه إيحاء بالعظمة التي لم

(١) مع ملاحظة?? صيغة (?لأحر? ?) من جمو??لقلة ،?ما (?لحر? ?) من جمو??لكثر? ، ?مقا? لحيطة ??لحذ??لذ ? يقصد??لشاعر كا? يقتضي منه ?لتعبير بجمع ?لكثر? ??? ?لقلة ، ?لعل ?لذ ? ?فعه ?لى ?لك هو ?لمحافظة على?لو???لعر?ضي للبيت .

يعهدها في غيره من الملوك والأمراء، فهي خلافة وإمارة ترتفع فوق كل مظاهر العظمة الخادعة وزخارف الدنيا الفانية، يستوي في ظلالها السيد مع المسود، والغنى مع الفقير، لا تعرف العصبية ولا الفخر والاستعلاء بالقوة والجاه، والتعبير بصيغة المصدر (الجلالة) فيه مزيد من المبالغة في معاني التعظيم لتلك الخلافة الراشدة التي لا تعرف تمييزا بين الراعي ورعيته، ولذلك أتبعها بجملة الحال الكاشفة عن معاني السمو والرفعة والتعالي عن القيم الأرضية الهابطة والتي تعتز بالمناصب الفانية فتندفع إلى التكبر على الرعية وإقامة بروج عاجية تحول بينها وبينهم.

ويرسم شاعرنا صورة حية لأثر تلك الخلافة السامية فيقول :

فَوقَ الثَرى تَحتَ ظِلِّ الدَوحِ مُشتَمِلاً بِبُـردَةٍ كـادَ طـولُ العَهـدِ يُبليهـا

وتبرز الصورة الكنائية في قوله واصفا بردة الفاروق (كاد طول العهد يبليها) وهي كناية عن ثيابه البالية، فطول العهد بلبسها، يستلزم تقادم الزمن عليها، وهذا يستلزم أنها أضحت ثيابا رثَّة.

والكناية السابقة فوق ما أفادته من معنى كنائي، تدل كذلك على تواضع (الفاروق) مع الرعية، فلم يترفع عليها بشيء في مظهره أو ملبسه، فلا شك أن من يلبس الملابس البالية وهو أمير للمؤمنين، لهو في غاية التواضع والزهد.

وهنا بعد أن رأى رسول كسرى تلك الصورة الوضيئة لملك جديد لم يعهده، يظهر أثر ذلك عليه، ويقول شاعرنا معبرا عن ذلك :

فَهـانَ فـي عَينيـهِ مـا كـانَ يَكبُـرُهُ مِـنَ الأَكاسِـرِ، وَالـدُنيا بِأَيـديها

وقد اشتمل البيت على عدة كنايات :

فقوله (فَهانَ فِي عَينيهِ) كناية عن الازدراء والاحتقار، فهوان الشيء في النفس يستلزم ازدراءه واحتقاره.

وقوله : (ما كانَ يَكبُرُهُ مِنَ الأَكاسِرِ) كناية عن مظاهر العظمة والأبهة التي ينعم بها الملوك والأكاسرة، والتعبير في سياقها بـ (ما) الموصولة فيه إيحاء بالتفخيم والتعظيم، والتعبير بالفعل (يكبره) له دلالته على أنها داعية الإعجاب والافتنان، وقوله : (وَالدُنيا بِأَيديها) كناية عن تملكها لكل مظاهر العظمة والترف.

والصور الكنائية السابقة، وإن كانت قريبة، إلا أنها استطاعت أن تبرز غاية التأثر الذي حلَّ برسول كسرى، فلم يملك إلا أن يقول كلمته المأثورة، والتي صاغتها لغة شاعرنا بقوله :

أَمِنتَ لَمّا أَقَمتَ العَدلَ بَينَهُمُ فَنِمتُ نَومَ قَريرِ العَينِ هانيها

ومتى يَعِي حكامنا ذلك ؟!! وإلى مقطوعة أخرى من تلك العمرية الرائعة.

الكناية في مقام ترسيخ الأخذ بمبدأ الشورى عند الفاروق

لقد جعل الله (ﷻ) الشورى سمة من سمات المؤمنين، فقال : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [1]، فهي قوام الحياة الإسلامية، وليست شيئا ثانويا، ولذا نالت في الإسلام أرحب مدى في تطبيقها، حتى خاطب الله نبيه آمره بها، فقال : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [2]، فأعطانا الرسول الكريم القدوة من نفسه، وضرب أروع الأمثلة في أخذه بهذا المبدأ، وقد سجل له التاريخ أكثر من موقف في ذلك.

وعلى نهج النبي الكريم سار أصحابه (رضى الله عنهم)، وعلى رأسهم فاروق تلك الأمة، إذ يعد أول من قرر قاعدة الشورى في انتخاب خليفةً للمسلمين، واستطاع (حافظ) بعبقريته الفنية أن يسجل هذا الموقف من عمر، فقد سُئِل عندما طُعِن عمَّن يوصي به بعده، فَقَالَ لِلْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ : إِذَا وَضَعْتُمُونِي فِي حُفْرَتِي فَأَدْخِلْ عَلِيًّا وَعُثْمَانَ وَالزُّبَيْرَ وَسَعْدًا وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَطَلْحَةَ إِنْ قَدِمَ، وَأَحْضِرْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَلا شَيْءَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ، وَقُمْ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَإِنِ اجْتَمَعَ خَمْسَةٌ وَرَضُوا رَجُلا وَأَبَى وَاحِدٌ فَاضْرِبْ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِ اتَّفَقَ أَرْبَعَةٌ فَرَضُوا رَجُلا مِنْهُمْ وَأَبَى اثْنَانِ، فَاضْرِبْ رأسَيهما، فَإِنْ رَضِيَ ثَلاثَةٌ رَجُلا مِنْهُمْ وَثَلاثَةٌ رَجُلا مِنْهُمْ، فَحَكِّمُوا عَبْدَ اللَّهِ ابن عُمَرَ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ حَكَمَ لَهُ فَلْيَخْتَارُوا رَجُلا مِنْهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَرْضَوْا

(١) سو???لشو? ? ، من?ية ?قم : ٣٨ .
(٢) سو??? عمر?? ، من?ية ?قم : ١٥٩ .

بِحُكْمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فَكُونُوا مَعَ الَّذِينَ فِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَاقْتُلُوا الْبَاقِينَ إِنْ رَغِبُوا عَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ [1]، وإلى هذه القصة يشير شاعرنا فيقول :

يـا رافِعـاً رايَـةَ الشـورى وَحارِسَـها	جَـزاكَ رَبُّـكَ خَيـراً عَـن مُحِبّيهـا
لَـم يُلهِـكَ النَـزعُ عَـن تَأييـدِ دَولَتِهـا	وَلِلمَنِيَّـــــةِ آلامٌ تُعانيهـــــا
لَـم أَنـسَ أَمـرَكَ لِلمِقـدادِ يَحمِلُـهُ	إِلـى الجَماعَـةِ إِنـذاراً وَتَنبيهـا
إِن ظَـلَّ بَعـدَ ثَـلاثٍ رَأيُهـا شُـعَباً	فَجَرِّدِ السَيفَ وَاضرِب في هَواديها
فَاعجَب لِقُوَّةِ نَفسٍ لَيسَ يَصرِفُها	طَعـمُ المَنِيَّـةِ مُـرّاً عَـن مَراميهـا
دَرى عَميدُ بَني الشورى بِمَوضِعِها	فَعـاشَ مـا عـاشَ يَبنيهـا وَيُعليهـا
وَمـا اسـتَبَدَّ بِـرَأيٍ فـي حُكومَتِـهِ	إِنَّ الحُكومَـةَ تُغـري مُسـتَبِدّيها

وقد جاءت الكناية في المقطوعة السابقة في عدة مواضع :

ففي البيت الأول جاء قوله (يا رافِعاً رايَةَ الشورى) كناية عن موصوف وهو عمر (ﷺ) وهذه الصفة المذكورة وإن اشتهر بها غيره كالنبي (ﷺ)، وأبي بكر، فهو أول من أخذ بمبدأ الشورى بعد النبي (ﷺ) إلا أن سياق الحديث عن عمر قرينه تدل على مقصد الشاعر في الموصوف بهذه الصفة.

والكناية السابقة وإن كانت قريبة إلا أن شاعرنا تفنَّن في النظم المعبِّر عنها، حيث جاء التشبيه البليغ في قوله : (راية الشورى) وهو من إضافة المشبه به إلى المشبه، والأصل : رافعا الشورى كراية، بجامع الهداية في كل، فكما أن الراية يهتدى بها السائرون، فالشورى تهدي الآخذين بها وتعصمهم من الاختلاف والفتن.

(١) ينظر : تا?يخ?لطبر?، لمحمد بن جرير?لطبر? : ٤ / ٢٢٩ ، ???لتر? ? – بير? ? ، ?لطبعة?لثانية - ١٣٨٧ هـ .

وتظهر بلاغة هذه الصورة التشبيهية السابقة في أنها صورت الشيء المعنوي (الشورى) بصورة حسية (الراية)، مما كان له أثره البيِّن في إثبات المعنى المراد في النفس واستقراره.

ومبالغة من شاعرنا في تأكيده على أخذ الفاروق بهذا المبدأ وحرصه عليه نراه يشبه الشورى بشيء نفيس يستحق أن يُحْرس، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية في الضمير العائد عليها في قوله (وحارسها).

وبتلك الخصائص تتجلى بلاغة الصورة الكنائية السابقة حيث أظهرت هذا الجانب المشرق من شخصية الفاروق (ﷺ) في صور محسة مؤكدة، فقد عُرِفَ عنه أنه كان ممن يأخذ بالشورى في الأمور كلها وأثر عنه قوله : (لا خير في أمرٍ أُبْرِمَ مِن غير شورى) [1] حتى كان حريصا على الأخذ بها في آخر أنفاس حياته، ولذا يقول حافظ :

لَـم يُلهِـكَ النَـزعُ عَـن تَأييـدِ دَولَتِهـا وَلِلمَنِيَّـــــــةِ آلامٌ تُعانيهـــــــا

وقوله (النزع) كناية عن موصوف، وهي لحظة الموت، حيث أطلقت الصفة وأريد بها الموصوف، وبالرغم من أن الكناية عن موصوف من أقل صور الكناية بلاغة وتأثيراً، إلا أن السياق – هنا – قد أضفى عليها ما يجعلها في غاية الدلالة على مقصد الشاعر، ففرق كبير بين أن يقول : لم يلهك الموت، وما جاء عليه التعبير في البيت، لما يُضْفِيه لفظ المكنى به من معاني الشدة والصعوبة والقسوة والألم، ومع

(١) ينظر :?لمنتظم في تا?يخ?لأمم ??لملو ? ، لـ جما??لدين?بو?لفر??لجو?? : ٤ / ١٣٩ ، تحقيق : محمد عبد?لقا?? عطا، مصطفى عبد?لقا?? عطا ، ???ل كـ تب ?لعلمية، بير?? ،?لطبعة:?لأ?لى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ ? .

ذلك لم يصرفه ذلك عن إرشاد الأمة في كيفية اختيار خليفتها من بعده، وذلك مما يبرز حرصه عليها حتى في أشد لحظات حياته، وقد أشار شاعرنا إلى توجيه الفاروق للمقداد بقوله :

إن ظَـلَّ بَعـدَ ثَـلاثٍ رَأيُهـا شُـعَباً فَجَرِّدِ السَيفَ وَاضرِب فـي هَواديها

وتتجلى الكنايتان فى الشطر الثانى من البيت، فقوله (فجرد السيف) كناية عن الاستعداد للضرب، وقوله(واضرب فى هواديها) كناية عن القتل،، وهما كنايتان عن صفة لم يذكرهما الشاعر صراحة ولكنه دَلف إليهما بذكر تركيب يلزم منه معناهما.

وفضل الكناية هنا أنها قدمت لنا هذين المعنيين في صورة حسية مصحوبة بالدليل مقرونة بالبرهان.

وإيثار التعبير بهذين الدليلين أقوى دلالة على حتمية التنفيذ وأن الأمر لا يقبل الهوادة أو التأخير ؛ لأنه أمر جلل من الممكن أن يعصف بالأمة، فأصعب اللحظات في حياة الأمم يوم أن تفقد قائدها الحريص عليها المحب لها، ولذلك ينبغي أن يُحْسَم أمرُ قيادتها، حتى لا يعبث العابثون والمتربصون بها الدوائر، وهذا ما خشى منه الفاروق، ولذلك كان حريصا على خروج الأمة من هذا المأزق الذي ربما تتعرض له، ومن هنا جاءت الصياغة في غاية الدقة، ومتناغمة مع ما يتطلبه الموقف، فالتعبير بفعلي الأمر (جرد، واضرب) مع سبق الأول بالفاء الواقعة في جواب الشرط، له دلالته على حتمية التنفيذ والسرعة في مواجهة اللحظة الطارئة بكل شدة وحزم، وواضح عنصر الحركة

بادياً في صياغة تلك الكناية، تأكيدا على أن التقاعس وعدم التحرك الفوري مما يضر بمصلحة الأمة في هذا الظرف العصيب.

وتطالعنا الكناية في البيت السابع :

وَمـا اسـتَبَدَّ بِـرَأيٍ فـي حُكومَتِـهِ إنَّ الحُكومَـةَ تُغـري مُسـتَبِدّيها

فالشطر الأول من البيت كناية عن الأخذ بالشورى في كل ما يتعلق بأمور الأمة، إذ يلزم من عدم استبداده بالرأي دائما أخذه بالشورى في كل أموره، وتتجلى بلاغة الكناية هنا في إبرازها لهذا الجانب من شخصية الفاروق بالدليل والبرهان، كما أنها تقرر وتؤكد الكناية الواقعة في قوله : (يا رافِعاً رايَةَ الشورى).

وتظهر دقة الشاعر في إيثاره للفعل (استبد) دون غيره مثل (وما انفرد) مثلا، وذلك لما يوحيه لفظ الاستبداد من معاني القهر والظلم والتحكم والسيطرة وكأن الرعية ما هي إلا قطيع يساق.

وكذلك تعبيره بـ (رأي) نكرة في سياق النفي لإفادة العموم، مما يدل على أن الشورى عند الفاروق لم تكن قاصرة على جانب واحد، بل كانت شاملة لكل نشاط في المجتمع، سواء في شئون الحرب أو الحكم أو الاقتصاد أو القضاء أو غير ذلك من جوانب الحياة.

الكناية في تصوير زهده (رضي الله عنه)

لقد كان جيل الصحابة (رضى الله عنهم) جيلا ربانيا بحق ؛ لأنهم تخرجوا من مدرسة النبوة المحمدية، وقد تميز هذا الجيل، وعلى رأسهم الفاروق بالزهد في الدنيا وعدم التعلق بشيء من مغرياتها، لأنهم كانوا على يقين تام، وإيمان قوي بقول ربهم – جل في علاه – :(ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف)[1].

وقد التقط حافظ (رحمه الله) هذا الجانب من شخصية الفاروق وصوَّره عارضاً في تلك العمرية أبرز المواقف التي تدل على زهده وورعه فنراه يقول :

يا مَن صَدَفتَ عَنِ الدُنيا وَزينَتِها ... فَلَم يَغُرَّكَ مِن دُنياكَ مُغريها
ماذا رَأَيتَ بِبابِ الشامِ حينَ رَأَوا ... أَن يُلبِسوكَ مِنَ الأَثوابِ زاهيها
وَيُركِبوكَ عَلى البِرذَونِ تَقدُمُهُ ... خَيلٌ مُطَهَّمَةٌ تَحلو مَرائيها[2]
مَشى فَهَملَجَ مُختالاً بِراكِبِهِ ... وَفي البَراذينِ ما تُزهى بِعاليها[3]
فَصِحتَ يا قَومُ كادَ الزَهوُ يَقتُلُني ... وَداخَلَتنِيَ حالٌ لَستُ أَدريها

---

(١) سو??? عمر?? ، من?ية ?قم : ١٨٥ .
(٢)?لبر??? :?لد?بة ، ?بر???لفر ?. مشى مشي?لبر??ين ، لسا??لعر ? : (بر??) .
(٣) ?لهملجة : حسن?لسير في سرعة ?تبختر ، لسا??لعر ? : (هملج) .

وَكــادَ يَصــبو إِلــى دُنيــاكُمُ عُمَــرٌ   وَيَرتَضــي بَيــعَ باقيــهِ بِفانيهــا

رُدّوا رِكــابي فَــلا أَبغــي بِــهِ بَــدَلاً   رُدّوا ثِيــابي فَحَســبي اليَــومَ باليهــا

والأبيات السابقة – كما هو واضح – تشير إلى تلك القصة المشهورة في حياة هذا الصحابي الجليل، فيروى أنه لما شخص إلى بيت المقدس رأى فرسه يتوجَّى، فنزل عنه وأتى ببرذون فركبه فهزَّه، فنزل فضرب وجهه بردائه، ثم قال: قبَّح الله مَنْ علَّمك، هذا من الخيلاء، ثم دعا بفرسه بعد ما أجمَّه أيامًا فركبه، ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس، ولم يركب قبله ولا بعده برذوناً(١).

والأبيات مع وضوحها تبرز صفة الزهد والورع التي تحلى بها الفاروق، وكان للكناية دورها في التدليل على ذلك مع غيرها من ألوان البيان، ففي البيت الأول :

يـا مَـن صَـدَفتَ عَـنِ الـدُنيا وَزينَتِهـا   فَلَـم يَغُـرَّكَ مِـن دُنيـاكَ مُغريهـا

نجد قوله : (**صَدَفتَ عَنِ الدُنيا وَزينَتِها**) كناية عن صفة الزهد والورع، فإن إعراض الإنسان عن الدنيا وصدوفه عن زينتها يستلزم زهده وورعه فيها، وهي كناية قريبة لا تحتاج إلى عناء في استخراجها.

وتتجلى براعة التصوير بتلك الكناية مع اقترانها بالاستعارة المكنية في الضمير العائد على الدنيا في لفظ (زينتها) حيث شُبِّهت بالعروس التي من شأنها أن تلبس أبهى اللباس والحلل، وهذا يعني توفر مقومات الإغراء لدى الفاروق، ومع ذلك لم يلتفت إليها، ولم يغتر بشيء من زخارفها أو يتعلق بشيء من مآربها.

---

(١) ينظر :?لا كتفا? بما تضمنه من مغا??سو??لله (ﷺ) ??لثلاثة ?لخلفا? ، لـ سليما? بن موسى?لحمير? : ٢ / ٣١٣ ، ???لكتب?لعلمية – بير??، ?لطبعة ?لأ?لى، ١٤٢٠ هـ .

وفي البيت الثاني :

مـاذا رَأَيـتَ بِبـابِ الشـامِ حـينَ رَأَوا أَن يُلبِسـوكَ مِـنَ الأَثـوابِ زاهيهـا

تطالعنا الكناية في قوله : (أَن يُلبِسوكَ مِنَ الأَثوابِ زاهيها)، وهي كناية عن الرغبة في تميُّزه بإظهاره بمظهر الملوك، فلا شك أن الصحابة (رضى الله عنهم) لم يكن مقصدهم الأول أن يلبسوا الفاروق أزهى اللباس، وإنما أرادوا ما وراء ذلك من إظهاره بما يميزه عنهم ويليق بخليفتهم.

وضاعف من جمال الكناية هنا ورودها في سياق الاستفهام الدال على دهشة عمر واستنكاره لصنيعهم في قوله (ماذا رأيت...) وذلك مما يتكاتف مع الكناية في إبراز صفة الزهد لدى الفاروق، والتي هي المعنى الرئيس الذي تدور الأبيات في فلكه.

وهذا التعجب والاستنكار الذي صاحب الفاروق دعاه إلى الاعتراض عليهم وتوجيههم فقال كما يحكي الشاعر :

فَصِحتَ يـا قَـومُ كـادَ الزَهـوُ يَقتُلُنـي وَداخَلَتنِـيَ حـالٌ لَسـتُ أَدريهـا

وَكـادَ يَصـبو إِلـى دُنيـاكُمُ عُمَـرٌ وَيَرتَضـي بَيـعَ باقيـهِ بِفانيهـا

وقد اشتمل البيت الأخير على عدة كنايات :

فالشطر الأول منه كناية عن التعلق بالدنيا والركون إليها، وقوله : (باقيه) كناية عن حياة الآخرة، وقوله (بِفانيها) كناية عن الحياة الدنيا، وهما كنايتان عن موصوف، ومشهورتان في العرف اللغوي، حتى صارتا في حكم الحقيقة اللغوية،

وقد آثر الشاعر التعبير بهما لأنهما أبرز صفات هاتين الحياتين، ويتحدد زهد الإنسان وورعه بمقدار موقفه من كليهما.

وضاعف من جمال تلك الكنايات الثلاث في البيت براعة الشاعر في اختياره للألفاظ المعبرة عما يهدف إليه من معان، تأمل المجاز الواقع في لفظ (دنياكم) حيث شبهها بامرأة فاتنة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو قوله : (يصبو) وتظهر دقة الشاعر في تلك الإضافة إلى ضمير المخاطبين في (دنياكم)، وهذا مما يتسق مع مقام وصفه بالزهد، فما عهد عنه (ﷺ) أنه أحبها أو ركن إليها منذ ذاق طعم الإيمان وأحس بحلاوته، كما عبر الشاعر باسمه الصريح (عمر) على لسانه، هكذا دون وصف، دلالة على أنه فرد عادي كآحاد الناس، معرض لفتنة الحياة وربما تستهويه زخارفها، ولذا عبر بفعل المقاربة (كاد).

وفي الشطر الثاني تطالعنا الاستعارة المكنية في لفظتي الكناية، حيث شُبِّهت كلتاهما (باقيه وفانيها) بسلعة تباع وتستبدل إحداهما - والتي لا تساوي شيئا بالأخرى -، مما يعني أن الصفقة في غاية الخسارة، لأن ثمن الأخرى (الجنة) ولا يدفع ثمنها إلا كل عابد وزاهد وتقي وورع.

كما كان لطباق الإيجاب الواقع بين (باقيه) و (فانيها) دوره في إيضاح المعنى والتأكيد على بون المفارقة بين السلعتين، ومعلوم أن الطباق " يؤدي غرضا معنويا من استيعاب الحكم أو عقد مقابلات حسية أو نفسية زمانية أو مكانية، فالجمع

بين المختلفين في نسق واحد يحقق عنصر المفاجأة، وعدم التوقع، فضلا عما يثيره في النفس من هزة، والفكر من إمعان وإمتاع " [1].

(١) بحو? بلاغية في علم?لبديع ، ? / صبا? عبيد ???? ، ? ? عبد?لر???يا? : ٦١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ ? .

الكناية في تصوير مشهد من مشاهد رحمته – رضى الله عنه-

إذا كانت الشخصية العمرية تميزت بالشدة والقوة والصرامة، فإنها كانت من أجل إحقاق الحق وإرساء العدل، ومع ذلك كان (ﷺ) من أصحاب المشاعر المرهفة، والقلوب الرحيمة، وقد سجل له حافظ في عمريته إحدى المشاهد التي تدل على بالغ رحمته ورقة قلبه، وسمو روحه، وشدة وجله وخوفه من ربه، وتقديره لمسئولية الخلافة حق قدرها، فيروى أنه (ﷺ) كان يتعسس بالليل، فرأى امرأة توقد النار على حصى وماء وتشغل بذلك أولادها عن طلب الطعام حتى يناموا، فما كان منه إلا أن ذهب إلى بيت المال وأتى بشيء من الدقيق، وجلس بنفسه يشعل النار وينضج الطعام ولم ينصرف حتى أكل الأطفال وناموا، والأبيات التي تصور ذلك المشهد في العمرية هي :

وَمَـــن رَآهُ أَمـــامَ القِـــدرِ مُنبَطِحـــاً ... وَالنـــارُ تَأخُـــذُ مِنـــهُ وَهـــوَ يُـــذكيها
وَقَـــد تَخَلَّـــلَ فـــي أَثنـــاءِ لِحيَتِـــهِ ... مِنهـا الـدُخانُ وَفـوهٌ غـابَ فـي فيهـا
رَأى هُنـاكَ أَميـرَ المُـؤمِنينَ عَلـى ... حـــالٍ تَـــروعُ لَعَمـــرُ اللَهِ رائيهـــا
يَستَقبِلُ النـارَ خَـوفَ النـارِ فـي غَـدِهِ ... وَالعَـينُ مِـن خَشـيَةٍ سـالَت مَآقيهـا

والبيتان الأولان بتمامهما كناية عن صفة الرحمة، فحين أراد الشاعر أن يُعبِّر عن تلك الصفة سلك طريق الكناية ليقدم لنا تلك الصفة مصحوبة بما يدل عليها مشفوعة ببرهانها، فعدل عن ذكرها صراحة إلى سرد هذا المشهد، فقد كان يمكن أن يقول : إن الفاروق عمر كان رحيما بأمته، يتفقد أحوالها، ولكنه عدل عن ذلك

وأتى بالدليل المحس والبرهان القاطع ليدلل على هذا المعنى فرؤية أمير المؤمنين وهو نائم على وجهه ممتدا على الأرض، وهو يوقد النار والدخان يتخلل لحيته، وفمه قد غاب في النار ينفخ فيها، كل هذا من أجل أن يطعم هؤلاء الفتية الصغار، لاشك أن هذا أعظم دليل على رحمته وشفقته بأمته وبخاصة الضعاف منها الذين قد لا يكونون محط الأنظار في الرعاية والاهتمام.

ومما يُعْلي من جمال تلك الصورة الكنائية فوق قيامها على الدليل المُحس الكاشف عنها هذا الاستقصاء في أوصاف المشهد مما ساعد على الإحاطة بالمعنى الكنائي من جميع جوانبه، فقد أرانا حافظ أمير المؤمنين وهو أمام القدر (منبطحا) باسم الفاعل لإفادة الثبوت والدوام، ويزداد المشهد إثارة برؤيته بنفسه وهو يوقد النار ويحاول إشعالها وتأتي صيغة المضارعة في (يذكيها) لترسم أمام أعيننا أمير المؤمنين وهو يقوم بذلك الفعل الذي ربما يراه البعض مما يسقط من هيبته ومكانته، ثم تطالعنا تلك الجملة المؤكدة (وقد تخلل....) دلالة على التوفر التام من أجل إنفاذ مهمته بكل شغف وأريحية، ويزداد المشهد روعة وفيضا بالحنان بجملة الحال : (وَفوهٌ غابَ في فيها). وتلك لعمري حال تسترعي الانتباه والتعجب من مسلك هؤلاء الرجال العظام، الذين نعمت بهم الأمة، ولذلك نرى تلك اللمحة الذكية من شاعرنا حين يعبر بأسلوب الكناية عن عمر بقوله (أميرَ المؤمنين) دون عمر، أو الفاروق، أو أبي حفص، كما هو شأنه في أبيات تلك العمرية فيقول :

رَأى هُنـاكَ أَميـرَ المُـؤمِنينَ عَلـى حـالٍ تَـروعُ - لَعَمـرُ اللهِ - رائيهـا

وكأنه يقصد قصدا إلى هذا التعبير، ليظهر البون الشاسع بين المشهد السابق وبين ما تقتضيه إمارة المؤمنين من الترفع عن أمثال تلك الأمور التي قد تبدو في أعين البعض من الصغائر، ويكشف شاعرنا عن غاية الفاروق من ذلك فيقول :

يَستَقبِلُ النارَ خَوفَ النارِ في غَدِهِ وَالعَينُ مِن خَشيَةٍ سالَت مَآقيها

وقد احتوى البيت على عدة كنايات :

فقوله : (يستقبل النار) كناية عن التهيؤ الكامل لخدمة هؤلاء الصغار وإعداد الطعام لهم وهي تلتقي مع سابقتها في الدلالة على خشية الفاروق ورحمته، وقوله : (خوف النار في غده) كناية عن خوفه من الحساب والعقاب، فالذي يخاف من نار جهنم لا شك أنه يخشى حساب ربه ويخاف عقابه، وقوله (غده) كناية عن يوم القيامة.

وقوله : (والعين من خشية سالت مآقيها) كناية عن رقة قلبه وعظيم خشيته، والكنايات السابقة، وإن تعددت، إلا أنها تدلل جميعها على رحمة الفاروق ورقة قلبه وشعوره المرهف، ولم يكتف شاعرنا ببرهان واحد يدل على ذلك، وإنما جاء بأدلة مختلفة كلها نافذة إلى المعنى المقصود، وهو الدلالة على ما اتسم به الفاروق من خلق الرحمة والخوف من ربه ومراقبته وإحساسه بعظمته وجلاله.

الكناية في تصوير ورعه وتقشفه (ﷺ) (١)

لقد ضرب فاروق الأمة (ﷺ) أروع الأمثلة في القناعة والزهد وعدم التعلق بالدنيا، والبعد عن ملذاتها وشهواتها، فيُروى أن امرأته سألته ذات يوم أن يشترى لها حلواء، فقال لها : ومن أين لي ثمن ذلك ؟ فادخرت من نفقة البيت ما يكفى لشرائها، ويعلم الفاروق بعد عدة أيام بذلك، فإذا به يرد ما ادخرته إلى بيت المال وينقص من نفقة البيت مقدار ما ادخرت، ولله در حافظ (رحمه الله) فلم يغفل عن هذا الموقف الرائع في عمريته فنراه يقول :

إن جـاعَ فـي شِـدَّةٍ قَـومٌ شَـرِكتَهُمُ ... في الجوعِ أَو تَنجَلي عَنهُم غَواشيها
جـوعُ الخَليفَـةِ ـ وَالـدُنيا بِقَبضَـتِهِـ ... فـي الزُهـدِ مَنزِلَـةٌ سُـبحانَ مولِيهـا
فَمَـن يُبـاري أَبـا حَفـصٍ وَسـيرَتَهُ ... أَو مَـن يُحـاوِلُ لِلفـاروقِ تَشـبيها
يَومَ اشتَهَت زَوجُهُ الحَلوى فَقالَ لَها ... مِن أَينَ لـي ثَمَنُ الحَلوى فَأَشريها؟
لا تَمتَطـي شَـهَواتِ الـنَفسِ جامِحَـةً ... فَكِسـرَةُ الخُبـزِ عَـن حَلـواكِ تَجزيهـا

(١) ذكرت سابقا حديث الشاعر عن زهد الفاروق (رضى الله عنه) وهذه الأبيات متصلة بهذا المعنى ، ولعل ذلك لتعدد المواقف التى تبرز زهد الفاروق ، مما جعل الشاعر يعاود الحديث عن هذا الجانب من شخصية الفاروق مرة أخرى ، وأرى أن الأولى أن تكون أبيات هذه المقطوعة بعد الأبيات التى تحدث فيها عن زهده مباشرة ، دون أن يفصل بينهما بأبيات المقطوعة السابقة التى تتحدث عن رحمة الفاروق (رضى الله عنه).

والأبيات التي تصور تلك القصة بتمامها بلغت في العمرية خمسة عشر بيتا، ولكن اكتفيتُ بالأبيات المذكورة لعدم ملاحظتي لأسلوب الكناية في الأبيات الأخرى من المقطوعة، وذلك اكتفاءً بذكرها في مجمل النص في بداية البحث[1].

والقارئ للأبيات التي تصور تلك القصة يدرك أنها اعتمدت على طريقة السرد والحوار بين الفاروق وزوجه، ضاربا أروع الأمثلة في الحوار الأسري الهادئ، حتى في أبسط الأمور، ولذلك لم يجنح شاعرنا إلى أسلوب الكناية إلا في مواطن قليلة في تصويره لهذا المشهد، تناسبا مع الوضوح والصراحة التي ينبغي أن يتحلى بها الحوار الأسري، وتناسباً – أيضاً – مع حسم الفاروق لهذا التطلُّع الذي بدا له من زوجه فكان لابد من الحزم والصراحة في مواجهة هذا التطلع.

ومن هنا كان جنوح الشاعر إلى أسلوب الحقيقة في معظم الأبيات، ومع ذلك لم نعدم الكناية فيها .

فنرى الكناية بادية في البيت الأول :

إن جـاعَ فـي شِـدَّةٍ قَـومٌ شَـرِكتَهُمُ في الجوعِ أَو تَنجَلي عَنهُم غَواشيها

والبيت بتمامه كناية عن مواساته وإحساسه بآلام المعوزين والمحتاجين، وتتجلى بلاغة تلك الكناية في الكشف من خلال الدليل والبرهان عن شدة تأثر الفاروق بأحوال ذوي الحاجة من أفراد رعيته، ورهافة حسه تجاههم.

(١) ينظر?ليها صـ :

ومن لطائف تلك الكناية أنها أبرزت الأمر المعقول (المواساة ورقة الإحساس) في صورة محسة (المشاركة في الجوع)، مما أضفى على تلك الكناية الجمال والحسن، بالرغم من قربها ووضوحها.

كما كان التعبير بالقيد (في الجوع) واقعا موقعه الأمثل في صياغة تلك الكناية، فهو بمثابة تتميم [1] رائع، جاء زائدا على أصل المعنى، فكان من الممكن أن يتم المعنى بدونه، ويقال : إن جاع في شدة قوم شركتهم، بحذف المتعلق، ويكون متعلق الفعل (شركتهم) مقدَّماً عليه في قوله (في شدة) فتكون المشاركة في الشدة، وليس في الجوع، ولكن ما جاء عليه التعبير في البيت أبلغ بكثير، إذ يشعر بأن مشاركة الفاروق لا تقتصر على المساعدة في الشدة، إذ ربما كان ذلك بالمساندة المادية لهم، أو ما يرتبط بها من إمدادهم بالطعام والمؤنة، بخلاف ما أفاده التعبير بالقيد (في الجوع) حيث أفاد أقصى ألوان المشاركة في أبرز مظاهر الشدة، وهي المشاركة في الجوع.

وتطالعنا الكناية في البيت الثاني :

جـوعُ الخَليفَـةِ وَالـدُنيا بِقَبضَـتِهِ فـي الزُهـدِ مَنزِلَـةٌ سُـبحانَ موليهـا

والشطر الأول من البيت بتمامه كناية عن تقشف الفاروق وشدة ورعه، وتتجلى بلاغة تلك الكناية في إبرازها لهذا الوصف مصحوبا بما يدل عليه، إذ يلزم

(١) ?هو في?صطلا ??لبلاغيين :?? يؤتى في كلا? لا يوهم خلا ??لمقصو? بفضلة تفيد نكتة كالمبالغة ، ينظر :?لإيضا ? للخطيب?لقز?يني : ٣ / ٢١٢ ، ٢١٣ .

من جوع الخليفة مع امتلاكه لكل مظاهر الغنى واليسار، أنه غير حريص على شيء من تلك المظاهر الفانية، وذلك يستلزم وصفه بالورع والتقشف.

وورود تلك الجملة المعترضة (وَالدُنيا بِقَبضَتِهِ) في سياق تلك الكناية يدل على أن تقشفه وورعه ليس دافعه النقص أو الحاجة، كما تتأكد براعة شاعرنا في اختيار ألفاظه بإيثاره التعبير بـ (خليفة) في هذا الموطن خاصة، لأن الجوع من أمثال هؤلاء هو موطن الإثارة والتعجب، إذ غالبا ما تستهويهم الدنيا ويتعلقون بزخارفها، ولذا كان التعجب بلفظ (سبحان) في البيت واقعا موقعه الأمثل، ولو قال شاعرنا : جوع عمر والدنيا... ما كان هذا المعنى.

ويبرز خلق الزهد والتقشف في أسمى صوره في البيت الرابع :

يَومَ اشتَهَت زَوجُهُ الحَلوى فَقالَ لَها مِن أَينَ لي ثَمَنُ الحَلوى فَأَشريها؟

وبالرغم من وضوح المعنى في البيت إلا أن القارئ له لا يعدم الكناية فيه، ففي الشطر الثاني : (مِن أَينَ لي ثَمَنُ الحَلوى فَأَشريها) كناية عن قلة ذات اليد، وهي تؤكد المعنى الذي تدور حوله الأبيات، إذ كيف بخليفة تحت إمرته خزانة بيت المال لا يملك ثمنا لحلواء تشتهيها زوجه ؟!! وضاعف من جمال تلك الكناية ورودها في سياق الاستفهام المنبئ عن النفي، وذلك مما يتكاتف مع الكناية في إبراز قلة ذات اليد، وللقارئ أن يتأمل – أيضاً – دلالة الفعل (اشتهت) دون (طلبت) أو (أرادت) لما يوحيه لفظ الاشتهاء من شدة الرغبة، كما يومئ إلى طول مدة الحرمان من الشيء، فالإنسان لا يشتهي الشيء إلا بعد طول حرمان منه، وقد كان ذلك كفيلا بأن يجعل الفاروق يتهاون مع زوجه في تلبية هذا الأمر الذي يبدو في أعين الناس بسيطا وهينا.

ولكننا نراه يوجهها ناصحا، مع شيء من الزجر اللطيف فيقول حافظ على لسانه :

لا تَمتَطي شَهَواتِ النَفسِ جامِحَةً فَكِسرَةُ الخُبزِ عَن حَلواكِ تَجزيها

والشطر الأول من البيت كناية عن دعوتها إلى القناعة، إذ يلزم من نهي الفاروق لها عن السير وراء شهوات النفس، دعوتُها إلى القناعة، وهي كناية قريبة لا تحتاج عناءً في استخراجها.

كما أن هذه الكناية يصح أن تنطبق على أي زوج ينصح زوجه ويدعوها إلى القناعة في كل زمان ومكان.

وواضح من تلك الكناية أن التصوير الاستعاري عنصر بارز في نظمها؛ حيث شُبِّهت (شهوات النفس) بالدابة الجموح التي تهلك راكبها، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفعل (تمتطي)، وقوله (جامحة) ترشيح لتلك الاستعارة، والصورة فيها تبشيع لشهوات النفس كما تظهر بجلاء خطر التعلق بها، والسعي وراء نداءاتها، إذ فيه الهلاك والبوار ومرض القلب وتمزقه، بل وخسران الدنيا والآخرة، وجمع (شهوات) مع إضافتها إلى لفظ (النفس) دلالة على كثرتها وتنوعها مما يُغري على التعلق بها والوقوع في براثنها.

ولا شك أن تعانق تلك الصورة الاستعارية مع الصورة الكنائية مما يضاعف من جمالها، ويحث كل عاقل على القناعة، لما فيها من راحة البدن، وسلامة الدين، وصفاء النفس، وجلب الطمأنينة، وبرد القلب وسكونه.

الكناية في تصويره هيبته (ﷺ)

من المعلوم أن من أهم ما تميز به الفاروق قوة شخصيته وليس أدل على ذلك أنه عندما أسلم أعلن إسلامه على الملأ دون خوف أو خشية من عظماء قريش، وكذلك عندما هاجر من مكة إلى المدينة هاجر علانية متحديا أهل مكة، وقوة هذه الشخصية هي التي أضفت على الفاروق الهيبة والإجلال في الجاهلية والإسلام، وقد سجل حافظ في عمريته هذا الجانب من تلك الشخصية فنراه يقول :

فـي الجاهِلِيَّـةِ وَالإِسـلامِ هَيبَتُـهُ ... تَثنـي الخُطـوبَ فَـلا تَعدو عَواديهـا
فـي طَـيِّ شِـدَّتِهِ أَسـرارُ مَرحَمَـةٍ ... لِلعـالَمينَ وَلَكِـن لَـيسَ يُفشـيها
وَبَـينَ جَنبَيـهِ فـي أَوفـى صَـرامَتِهِ ... فُـؤادُ والِـدَةٍ تَرعـى ذَراريهـا
أَغنَت عَنِ الصارِمِ المَصقولِ دِرَّتُهُ ... فَكَـم أَخافَـت غَـوِيَّ الـنَفسِ عاتيهـا
كانَت لَـهُ كَعَصا (موسى) لِصاحِبِها ... لا يَنـزِلُ البُطـلُ مُجتـازاً بِواديهـا
أَخـافَ حَتّـى الـذَراري فـي مَلاعِبِهـا ... وَراعَ حَتّـى الغَـواني فـي مَلاهيهـا
أَرَيـتَ تِلـكَ الَّتـي لِلَّهِ قَـد نَـدَرَت ... أُنشـودَةً لِرَسـولِ اللَهِ تُهـديها
قالَـت: نَـذَرتُ لَـئِن عـادَ النَبِـيُّ لَنـا ... مِـن غَـزوَةٍ لَعَلـى دُفّـي أُغَنّيهـا
وَيَمَّمَت حَضرَةَ الهادي وَقَد مَلَأَت ... أَنـوارُ طَلعَتِـهِ أَرجـاءَ ناديهـا
وَاستَأذَنَت وَمَشَت بِالدُفِّ وَانـدَفَعَت ... تُشـجي بِأَلحانِهـا مـا شـاءَ مُشـجيها
وَ(المُصطَفى) وَ(أَبو بَكرٍ) بِجانِبِهِ ... لا يُنكِـرانِ عَلَيهـا مِـن أَغانيهـا
حَتّى إِذا لاحَ مِن بُعدٍ لَها (عُمَرٌ) ... خـارَت قُواهـا وَكـادَ الخَـوفُ يُرديهـا
وَخَبَّـأَت دُفَّهـا فـي ثَوبِهـا فَرَقـاً ... مِنـهُ وَوَدَّت لَـوَ أَنَّ الأَرضَ تَطويهـا
قَـد كـانَ حِلـمُ رَسـولِ اللَهِ يُؤنِسُـها ... فَجاءَ بَطشُ (أَبي حَفصٍ) يُخَشّيها
فَقـالَ مَهـبِطُ وَحـيِ اللَهِ مُبتَسِـماً ... وَفـي ابتِسـامَتِهِ مَعنـىً يُواسـيها
قَد فَرَّ شَيطانُها لَمّا رَأى (عُمَراً) ... إِنَّ الشَياطينَ تَخشى بَأسَ مُخزيها

ومع وضوح الأبيات فقد اتكأ شاعرنا على الأسلوب الكنائي كإحدى الدعامات التعبيرية الكاشفة عن هذا الجانب من الشخصية العمرية.

فقوله في البيت الأول : (هيبته تثني الخطوب) وإن كان التصوير الاستعاري فيه بارزا بصورة واضحة إلا أنه يحمل من وراء التركيب كناية عن قوة الشخصية وكمال الهيبة، حيث شبِّهت الخطوب بشيء حسي يُصَد ويُكسر، والتصوير يكشف عن القدرة التي تمتع بها الفاروق في مواجهة الشدائد والصعاب، والتغلب عليها بكل جرأة وقوة وشجاعة، وقد أضفى جمع (الخطوب) تأكيدا ومبالغة واضحة على هذا المعنى.

وآثر الشاعر التصوير الكنائي – هنا – ليقدم لنا هذا المعنى (الهيبة وقوة الشخصية) مصحوبا بدليله مقرونا ببرهانه، وذلك هو مكمن الأبلغية في الكناية.

وفوق ما أضفاه الأسلوب الكنائي من بيان واضح محس لقوة شخصية الفاروق نجد أن ذلك لم يكن قاصرا، على حياة عمر في إسلامه فحسب، بل تميزت شخصيته بذلك – أيضاً – قبل إسلامه، وقد أبان الطباق الواقع بين لفظي (الجاهلية) و (الإسلام) عن ذلك.

وتطالعنا الكناية في البيت الثالث في قوله :

وَبَـينَ جَنبَيـهِ فـي أَوفـى صَـرامَتِهِ فُـــؤادُ والِـــدَةٍ تَرعـــى ذَراريهـــا

والبيت بتمامه كناية عن رحمة الفاروق ورقة قلبه، وقد أضفى شاعرنا من خصائص النظم ما يجعل تلك الكناية في غاية الجمال والروعة والحسن، حيث تأنَّق في اختيار ألفاظه المعبرة عن هذا المعنى الكنائي، فالتعبير بـ (فؤاد) دون لفظ (

القلب) له دلالته، فلفظ (الفؤاد) ينبئ عن انشغال الذهن وتوقد الفكر، يقول الراغب : " الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤُّد، أي التوقد، يقال : فأدت اللحم : شويته، ولحم فئيد : مشوي"(١).

فاللفظ يكشف عن طبيعة الأم، فهي مع حنانها وعطفها على بنيها إلا أن ذلك ممزوج بانشغالها في أحوالهم، وتفكيرها في شئونهم، وكذلك لفظ (والدة) أبلغ في السياق من لفظ (أم) في الدلالة على الحنان والرقة، وكذلك إيثاره لفظ (ذراريها) أبلغ في سياقه من لفظ (أولادها) لما ينبئ عنه الأول من الضعف وشدة الحاجة إلى من يعولهم ويترفق بهم.

وتتألق براعة شاعرنا في تعبيره بجملة (في أوفى صرامته) فهي بمثابة جملة احتراسية، حتى لا يظن أن رحمته ورقة قلبه ممزوجة بالضعف، فجاءت تلك الجملة لتدفع ذلك الظن وتكشف عن هذا الجانب الجلي في شخصية الفاروق، وهي الرحمة الممزوجة بالقوة والصرامة في مواجهة الباطل، ولذا نراه يشبه درة عمر (رضي الله عنه) والتي اشتهر بها وأغنته عن السيف القاطع فيقول :

كانَت لَـهُ كَعَصا (موسى) لِصاحِبِها لا يَنــزِلُ البُطــلُ مُجتــازاً بِواديهــا

وقوله في الشطر الثاني عن تلك الدرة (لا ينزل البطل مجتازا بواديها) كناية عن عدم استعمالها إلا في الحق فبالرغم من أن هذه الدرة لا تمثل مصدرا مؤلما أو أداة قاسية للتعذيب إلا أن الفاروق لم يؤثر عنه أنه استعملها في الظلم والبغي على أحد، بل كانت أداة لإقامة دعائم الأمن والتصدي لعبث العابثين واستهتار المستهترين،

(١) ?لمفر?? ? للر?غب : ٣٧٢ .

فكانت أداة سحرية في إخافة كل عاصٍ، تغويه نفسه الأمارة بالسوء والفحش في المجتمع، ولذا نراه يشبهها بـ (عصا موسى) في الشطر الأول من البيت في تحقيقها لما يشبه الخوارق مع أنها أداة هينة بسيطة لكل ناظر، فأنَّى لهذه الدرة البسيطة أن تخيف العابثين وتردع المفسدين ؟!! فلا شك أنها استمدت قوتها من قوة شخصية حاملها وكمال هيبته، ولذا نراه يكنى عن المعنى نفسه في البيت السادس فيقول :

أَخافَ حَتّى الذَراري في مَلاعِبِها وَراعَ حَتّى الغَواني في مَلاهيها

فلا شك أن من يخيف الذراري في أماكن لعبها، ويرِّوع الغواني في مواطن لهوها، إنسانٌ قوي الشخصية عظيم الهيبة، والتعبير بالمترادِفَيْن (أخاف)، (راع) مما يرسِّخ هذا المعنى الكنائي، و (حتى) في الموضعين من البيت لانتهاء الغاية، وكأن الفاروق أخاف كل من يتأتى منه الخوف حتى وصل ذلك إلى ذروته وحده الأقصى، متمثلا في الذراري التي كانت إذا رأته سائرا فرَّت من أمامه ذعرا وخوفا، وكذلك الغواني اللاتي اشتهرت قصتُهُنَّ عندما غنّين عند رسول الله (ﷺ) وفاءً لنذر واحدة منهن بذلك عند رجوع الرسول من إحدى الغزوات، ولم ينكر رسول الله ذلك عليها وكذلك صاحبُه أبو بكر، وفي تصوير تلك اللحظة يقول حافظ :

حَتّى إِذا لاحَ مِن بُعدٍ لَها (عُمَرٌ) خارَت قُواها وَكادَ الخَوفُ يُرديها
وَخَبَّأَت دُفَّها في ثَوبِها فَرَقاً مِنهُ وَوَدَّت لَوَ أَنَّ الأَرضَ تَطويها

وقد اشتمل البيتان على أربع كنايات، كلها تصب في معنى واحد، وهو هيبة الفاروق (ﷺ)، وجميعها يصور شدة الفزع التي اعترت هذه الجارية عند رؤيتها للفاروق، وهي تغني في مجلس رسول الله (ﷺ)، وقد جاءت هذه الكنايات كلها

مشفوعة بالأدلة والبراهين التي تثبت قوة هيبة الفاروق وأثرها البيِّن على كل من رآه.

والكناية الأولى في قوله : (خارت قواها) وفيها إيحاء واضح بالضعف التام وشدة الخوف أمام رؤية الفاروق.

والثانية في قوله : (وكاد الخوف يرديها) وفيها تصعيد لمعنى الذعر، الذي يكاد أن يهلك تلك الجارية.

والثالثة في قوله : (وخبأت دُفَّها في ثوبها)، إذ يلزم من ذلك شدة خوفها من الفاروق، وإن كان ذلك لا يمنع المعنى الحقيقي من هذا اللفظ.

والكناية الأخيرة في قوله : (وودت لو أن الأرض تطويها) ويا لها من أمنية قاسية لما تنبئ به من معاني الذعر والرعب.

وتزداد تلك المعاني قوة ومبالغة بملاحظة هذا القيد (مِن بُعدٍ لَهَا عُمَرٌ) فماذا لو رأته عن قرب ؟، وكذلك إيثار التعبير بالفعل(لاح) دون مرادفه (ظهر) مثلا.

والأمر لم يقتصر عليها فحسب، بل انسحب على شيطانها اللعين، فنرى حافظاً يقول :

قَد فَرَّ شَيطانُها لَمّا رَأى (عُمَراً) إنَّ الشَياطينَ تَخشى بَأسَ مُخزيها

وفي البيت كنايتان في غاية الروعة والحسن يؤكدان المعنى المحوري الذي تدور الأبيات في فلكه.

الأولى : في قوله : (قَد فَرَّ شَيطانُها) وهي كناية عن شدة هيبة الفاروق، وهي كناية بعيدة تحتاج في الوصول إليها عدة وسائط، إذ يلزم من فرار شيطان تلك الجارية من عمر، شدةُ خوفه منه، وذلك يستلزم إدراكه لقوة إيمانه، وشدة تقواه لربه، وذلك يستلزم عدم القدرة على الاستحواذ عليه واستمالته إلى الشهوات والنزوات، وذلك يستلزم هيبته منه، والفعل (فرَّ) بصيغته وجرسه يوحي بشدة الذعر والخوف من هذا الصحابي الجليل، وتأكيده بـ (قد) للتحقيق.

وجملة الكناية هذه جرت على لسان رسول الله (ﷺ) ونقلها شاعرنا عنه، وقد كنى عنه حافظ في البيت السابق بقوله (مهبط وحي الله)، فيروى أن تلك الجارية لما رأت عمر أسقط في يدها واضطربت، فروَّح عنها رسول الله (ﷺ)، فقال مبتسما : (لقَد فَرَّ شَيطانُها) حين رأى عمر.

والكناية الثانية في قوله : (إِنَّ الشَياطينَ تَخشى بَأسَ مُخزيها) وهي كناية عن تقوى عمر وشدة ورعه، إذ يلزم من كون الشياطين تخشى بأس مخزيها، والمراد به الفاروق في البيت، أنها لا تملك إغواءه أو الاستحواذ عليه، ويلزم من ذلك قوة إيمانه وشدة تقواه.

وقد صاغ حافظ تلك الكناية في ثوب جملة التذييل المؤكد لما سبقه، وهي تذييل جار مجرى المثل تأكيداً على هيبة عمر، ودلالة على قوة إيمانه، مما جعله مهابا فلا تستطيع شياطين الجن الاستحواذ عليه أو إغراءه والوسوسة له، كما كان حال شياطين الإنس معه (ﷺ).

الكناية في تصويره رجوعه(ﷺ) إلى الحق

لقد قالوا : (الرجوع إلى الحق فضيلة)، وكذلك قالوا : (الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل)، والقارئ لسيرة الفاروق (ﷺ) يجد أنه ما استنكف يوما أن يعود إلى الحق ولو كان التصحيح من امرأة، فيروى أنه صعد المنبر ذات يوم، ونهى الناس عن أن يزيد المهر عن أربعمائة درهم، فاعترضته امرأة من قريش، وقالت له : أما سمعت الله (ﷻ)يقول :(قال تعالى : ﴿ ﴾)[1] فقال : اللَّهُمَّ غَفْراً... كل الناس أفقه من عمر، ورجع عن قوله "[2] .

(١) سو??لنسا? ، من?ية ?قم : ٢٠ .

(٢) ينظر : حيا??لصحابة ، لـ محمد يوسف?لكاندهلو? : ٣ / ٤٩٥ ، حققه ، ?ضبط نصه، ?علق عليه : ?لد كتو? / بشا? عو?? معر? ? ، مؤسسة ?لرسالة للطباعة ??لنشر ??لتو?يع، بير? ? – لبنا? ، ?لطبعة ?لأ?لى ،

وبهذا يضرب الفاروق المثل الأعلى في قبوله للنقد البناء، والمعارضة الهادفة، ويشجع عليهما في حرية تامة.

والأمثلة عن رجوعه إلى الحق غير ذلك الكثير، وفي تلك العمرية نرى حافظاً يُسَجِّل هذا الجانب لدى الفاروق، ونراه يشير إليه من خلال تلك القصة المشهورة، فيُروى أنه تَسَوَّر الحائط على جماعة يشربون الخمر يريد أن يباغتهم فأنكروا عليه أمورا ثلاثة أتاها، وهي دخوله عليهم من غير الباب، وعدم استئذانه، وتجسسه عليهم، وكل هذه نهى الله عنها، فأثنى عليهم بعد أن لزمته حجتهم وفي هذا يقول شاعرنا :

وَفِتيَـةٍ وَلِعـوا بِـالراحِ فَانتَبَـذوا ... لَهُـم مَكانـاً وَجَـدّوا فـي تَعاطيهـا
ظَهَـرتَ حـائِطَهُم لَمّـا عَلِمـتَ بِهِـم ... وَاللَيـلُ مُعتَكِـرُ الأَرجـاءِ سـاجيها
حَتّـى تَبَيَّنـتَهُم وَالخَمـرُ قَـد أَخَـذَت ... تَعلـو ذُؤابَـةَ سـاقيها وَحاسـيها
سَـفَّهتَ آراءَهُـم فيهـا فَمـا لَبِثـوا ... أَن أَوسَعوكَ عَلى ما جِئتَ تَسفيها
وَرُمـتَ تَفقـيهَهُم فـي ديـنِهِم فَـإِذا ... بِالشَربِ قَد بَرَعوا الفاروقَ تَفقيها
قـالوا مَكانَـكَ قَـد جِئنـا بِواحِـدَةٍ ... وَجِئتَنـا بِـثَلاثٍ لا تُباليهـا
فَـأتِ البُيـوتَ مِـنَ الأَبـوابِ يـا عُمَـرٌ ... فَقَـد يُـزَنُّ مِـنَ الحيطـانِ آتيهـا
وَاِستَأذِنِ النـاسَ أَن تَغشـى بُيـوتَهُمُ ... وَلا تُلِـمَّ بِـدارٍ أَو تُحَيّيهـا
وَلا تَجَسَّـس فَهَـذي الآيُ قَـد نَزَلَـت ... بِـالنَّهيِ عَنـهُ فَلَـم تَـذكُر نَواهيهـا
فَعُـدتَ عَـنهُم وَقَـد أَكبَـرتَ حُجَّـتَهُم ... لَمّـا رَأَيـتَ كِتـابَ اللَهِ يُمليهـا
وَمـا أَنِفـتَ وَإِن كـانوا عَلـى حَـرَجٍ ... مِـن أَن يَحُجَّـكَ بِالآيـاتِ عاصـيها

وقد سلكت الأبيات السابقة طريقة الوضوح في التعبير عن معانيها، فجاءت الألفاظ واضحة معتمدة على طريقة الحوار والسرد القريب من الكلام العادي، ومن ثم لم تكن في حاجة إلى المبالغة التي يهدف إليها التصوير البياني، ومع ذلك لم تخل من الأسلوب الكنائي، وإن جاءت صوره قريبة واضحة.

وتطالعنا الكناية في البيت الثاني في قوله : (وَاللَيلُ مُعتَكِرُ الأَرجاءِ ساجيها) وهو كناية عن صفة الأمان حيث توفر أسباب اللهو والمرح والبعد عن العيون، وشاعرنا لم يذهب مباشرة إلى هذا المعنى، ولكنه توصَّل إليه بذكر تركيب يلزم منه هذا المعنى الكنائي، ولا شك أن ذلك أبلغ وأقوى في إثباته مما لو جاء به غفلا ساذجا بادئ

الأمر، هذا فضلا عما فيه من تصوير للمعنى بإقامة الدليل عليه، وهذا مما يؤكد المعنى الكنائي الذي يرمي إليه الشاعر.

وقد اصطفى شاعرنا الألفاظ المعبرة عنه، والتي تتناسب غاية المناسبة مع مجالس الشرب، فلفظ (الليل) يتناسب مع تلك المجالس حيث البعد عن العيون، ووصفه بـ (معتكر الأرجاء) فيه دلالة على شدة اختلاط الليل بظلامه، وذلك مما يحث كل مستهتر وراغب، ويزداد عنصر الأمان بوصف تلك الأرجاء بـ (ساجيها) فالليل الساجي : هو الساكن الراكد الظلمة [1]، وهذا مما يبرهن على قدرة شاعرنا على انتقاء الألفاظ المعبرة والمناسبة مع المقام غاية التناسب.

وفي البيت التالي :

حَتّى تَبَيَّنتَهُم وَالخَمرُ قَد أَخَذَت تَعلو ذُؤابَةَ ساقيها وَحاسيها

نجد الكناية في الشطر الثاني (تَعلو ذُؤابَةَ ساقيها وَحاسيها) كناية عن شدة تأثير الخمر على عقولهم، وهي كناية عن صفة قريبة لا تحتاج إلى تأمل في إدراكها، فجملة الألفاظ المكني بها يلوح منها المعنى الكنائي بوضوح.

وتبدو روعة تلك الكناية وجمالها في تصويرها للمعنى الذهني المجرد (تأثير الخمر على هؤلاء الفتية) في صورة مرئية، وهذا مما يثبت تلك الجريمة عليهم بصورة لا تقبل الشك والجدال، وهذا مما يعطي الفاروق حق إقامة الحد عليهم دون ظلم أو بغي، لأن الجريمة ثابتة عليهم بجلاء، وتلتقي دلالة الفعل(تَبَيَّنتَهُم) دون (

(١) ينظر : لسا??لعر ? (سجى) .

رأيتهم) في الدلالة على أن الجريمة أضحت واضحة، فأبرز الوسائل في إثبات التهم هو الرؤية المباشرة لاقتراف الجاني.

وشاعرنا يقصد من وراء تلك الصورة الكنائية المؤكِّدة لوقوع هذا الفعل من هؤلاء الفتية أن ما كان للفاروق أن يتراجع عن إقامة الحد عليهم، حتى ولو اعترض هؤلاء بدعوى عدم صحة الضوابط الشرعية الملابسة لصحة إثبات تلك التهمة عليهم، وهي التجسس عليهم، ودخول الفاروق عليهم من غير الباب، وعدم استئذانه.

وهذا بالفعل ما أخذته الفتية على الفاروق كما أبانت الأبيات، حيث ذكروه بهذه المخالفات الشرعية التي اقترفها في سبيل إثبات مخالفة شرعية واحدة، ولكن ما كان للفاروق أن يستنكف عن قبول التوجيه والتصويب منهم، ولذا يقول حافظ :

فَعُدتَ عَنهُم وَقَد أَكبَرتَ حُجَّتَهُم لَمّا رَأَيتَ كِتابَ اللَهِ يُمليها

وفي قوله : (وقد أكبرت حجتهم) كناية عن نزوله على قولهم، والاعتداد برأيهم وقد عدل شاعرنا هذا المعنى الصريح إلى ما هو ردفه ودال عليه، ليقدم لنا المعنى مصحوبا بدليله مقرونا ببرهانه، فالذي يُكبر حجة أحد لاشك أنه موافق له ومسلم بما يقوله، وهذا المسلك الكنائي لا شك أنه أبلغ في إثبات المعنى، بالإضافة إلى ما فيه من كشف واضح لإبراز هذا الجانب من شخصية الفاروق، وهو قبول الرأي الآخر، حتى ولو كان قائله من العصاة والخارجين عن الشرع، وهذا يبرز

وقوفه مع الحق حيث يظهر، بصرف النظر عن قائله، فالأمر كما قيل : الرجال يعرفون بالحق، وليس الحق يُعرف بالرجال.

والتعبير بالفعل (أكبرت) في سياقها فيه إيحاء واضح بالخضوع التام للحق وإعجاب الفاروق بردهم، ولذا عبر عنه حافظ بلفظ (حجتهم) وفيه دلالة على قوة ردهم واقتناع الفاروق به، ومن هنا صفح الفاروق عنهم بل وأثنى على توجيههم، وذلك لوضوح حجتهم وقوة دليلهم ؛ لأنه ليس نابعا من خداعهم أو جاريا على حسب أهوائهم، بل هو مُسْتَقَى من كتاب الله، ولذا يقول حافظ مخاطبا له : (لَمّا رَأَيتَ كِتابَ اللهِ يُملِيها)، وذلك إشارة إلى قوله تعالى :(التحريم الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة الانسان المرسلات النبإ النازعات)[1]، وقوله تعالى :(الرحيم صدق الله) [2]

وإذا ما ذهبنا إلى البيت الأخير من المقطوعة :

وَمـا أَنِفـتَ وَإِن كـانوا عَلـى حَـرَجٍ   مِـن أَن يَحُجَّـكَ بِالآيـاتِ عاصـيها

طالعتنا الكناية في قوله : (وما أنفت...) وهي كناية عن تواضعه في الرجوع إلى الحق، إذ يلزم من عدم أنفته من الانصياع لحجة تلك الفتية العصاة رجوعه إلى الحق بكل تواضع ورضا نفس.

(١) سو??لنـــو? ، من?ية ?قم : ٢٧ .
(٢) سو??لحجر? ? ، من?ية ?قم : ١٢ .

وكان للفصل بين الفعل (أنفت) ومتعلقه (من أن يَحُجَّكَ..) بقوله : (وإن كانوا على حرج) دوره في التأكيد على أن المهم هو الاقتناع بالحجة وظهور الحق ولو كان من غير المعهود منهم.

وواضح من تلك الكناية تكاتفها مع ما سبقها من كنايات في الكشف عن تواضع الفاروق (ﷺ)، وقبوله لتوجيه هؤلاء الفتية بكل أريحية ورضاء نفس.

الكناية في تصوير موقفه من شجرة الرضوان

لعل من نافلة القول الإشارة إلى أن من الأحداث الشهيرة والمعروفة في تاريخ الدعوة الإسلامية بيعة الحديبية أو ما يعرف ببيعة الرضوان، وقد أخذ رسول الله (ﷺ) تلك البيعة تحت شجرة، سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان، وقد شهد عمر (ﷺ) تلك البيعة وكان آخذا بيد رسول الله (ﷺ)[1]، وأنزل الله (ﷻ) في شأن تلك الشجرة قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، فقال– سبحانه – : (آل عمران النساء المائدة الأنعام الأعراف الأنفال التوبة يونس هود) [2].

وكان لسيدنا عمر (ﷺ) موقف من تلك الشجرة بعد وفاة رسول الله (ﷺ) حيث رأى الناس يصلون عندها ويطوفون بها، فخاف أن ينصرف تكريمهم لها إلى معنى من معاني الوثنية فأمر بقطعها فقطعت، ولم ينس شاعرنا وهو يجسد مناقبه أن يشير إلى هذا الموقف، وفي هذا يقول :

وَسَرحَةٍ في سَماءِ السَرحِ قَد رَفَعَت ... بِبَيعَةِ المُصطَفى مِن رَأسِها تيها
أَزَلتَها حينَ غالَوا في الطَوافِ بِها ... وَكانَ تَطوافُهُم لِلدينَ تَشويها

وبالرغم من أن تلك الإشارة لم تتجاوز البيتين، إلا أنها حفلت بثلاث كنايات، فقوله (سرحة) كناية عن تلك الشجرة التي تمت البيعةُ تحتها، وهي كناية عن موصوف، وإيثار التعبير بهذا اللفظ الكنائي دون (شجرة) لأن سرحة في اللغة

(١) ينظر : ?لمنتظم في تا?يخ?لأمم ??لملو ? لـ جما??لدين?بو?لفر??لجو?? : ٣ / ٢٧٢ .
(٢) سو???لفـــتح ، من?ية ?قم : ١٨.

تعني : الشجرة الطويلة [1]، فشاعرنا بدلا من أن يقول : وشجرة الرضوان قد رفعت، ذكر هذا اللفظ المنبئ عن معنى الطول، وتفوقها عن مثيلاتها، ولذا جاء التعبير بها مُنَكَّرا، إشارة إلى أنها أضحت من نوع خاص من الشجر يلفت الانتباه من شدة الطول، وهذا ما حدث بالفعل من بعض الصحابة، فكان ما كان منهم في الصلاة عندها والطواف بها، وبهذا يتضح أن إيثار شاعرنا لتلك الصفة دون غيرها في الدلالة على الموصوف، لأنها أخص صفاته.

وتأتي الكناية الثانية مدعمة لما ترمي إليه الكناية السابقة من معنى وذلك في قوله : (قَد رَفَعَت بِبَيعَةِ المُصطَفى مِن رَأسِها تيها) وهو كناية عن عظيم طولها، وقد عدل شاعرنا عن تلك الحقيقة ليقدم هذا المعنى الكنائي ومعه دليل ثبوته، هذا فضلا عما اشتملت عليه تلك الكناية من تصوير خلاب عن طريق الاستعارة المكنية، حيث شبهت تلك الشجرة بإنسان يتعالى ويفتخر إعجابا بما يتميز به عن غيره، وذلك مما ضاعف من جمال تلك الكناية لقيامها على تلك الاستعارة اللطيفة، والتي كان لها دورها في المبالغة في التصوير وتأكيد المعنى.

والكناية الثالثة في قوله : (غالوا في الطواف بها) وهي كناية عن تعظيمهم وتقديسهم لها، وهي كناية قريبة كسابقتيها ؛ إذ يلزم من المغالاة في الطواف بها، شدةُ الإعجاب والتقديس لها.

وقد تجلت بلاغة تلك الكناية في أنها قدمت لنا المعنى (التقديس والتعظيم) ومعه دليل ثبوته وهو (المغالاة في الطواف بها) مما يعطي التعبير

(١) لسا??لعر ? : (سر ?) .

الكنائي قوة ومبالغة لا نراها في التعبير الحقيقي، كما لو قيل : أزلتها حين رأيت تعظيمهم لها.

وواضح أن المعنى الحقيقي يمكن أن يراد هنا مع المعنى الكنائي، إذ ثبت أن بعض الناس قد دأب على الصلاة والطواف عندها، وذلك – مما لاشك – مما يبالغ في إثراء المعنى الكنائي.

وإيثار التعبير بـ (أزلتها) دون (قطعتها) – مثلاً – لما في الأول من إيحاء واضح ببغض الفاروق لصنيع هؤلاء الناس، وقد انعكس ذلك على تخلصه بنفسه من تلك الشجرة ومحوها تماما، بالرغم من أنها نالت شرف التسجيل والتنويه بها في كتاب الله إلى يوم القيامة.

وهذا مما يؤكد حرص الصحابة (رضى الله عنهم) وعلى رأسهم فاروق تلك الأمة في التصدي لكل ما يعكر صفو تلك العقيدة أو يشوه صورتها.

وهكذا ينبغي أن يكون الحكام في كل زمان حراسا على العقيدة أمناء على أهلها، آخذين بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم وإرشادهم إلى سبل الخير والنأي بهم عن مواطن الخلل والابتداع في الدين.

وجزى الله عنا صحابة رسول الله خيرا، ورحم الله فاروق تلك الأمة جزاء ما قدم لأمته ونافح عن عقيدتها ورفع لواء نصرتها، ورحم الله شاعر النيل وجزاه الله خيراً، جزاء ما قدم للإسلام والعربية.

وصلِّ اللّٰهُمَّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والله أعلم،،

الخاتمة

أحمد الله العلي العظيم على جزيل عطائه، وأصلي وأسلم على خاتم رسله وأنبيائه.

فبعد هذه المعايشة مع تلك العمرية الرائعة يطيب لي أن أسجل أهم ملامح الأسلوب الكنائي فيها وهي كالآتي :

١- ورد أسلوب الكناية في تلك العمرية حوالي مائة وثلاثة وخمسين موضعا، وكان للكناية عن صفة النصيب الأكبر منها، فقد جاءت مائة وست عشرة مرة تقريبا، وهذا هو الشأن الغالب عليها دائما من بين أنواع الكناية، بينما جاءت الكناية عن موصوف في المرتبة الثانية، وقد جاءت في ثلاثين موضعا، وجاءت الكناية عن نسبة في المرتبة الأخيرة، حيث جاءت في سبعة مواطن فقط، وهذا مما يتناسب مع طبيعتها في قلة دورانها في الأسلوب الأدبي بصفة عامة.

٢- اتضح من خلال البحث أن الكناية كان لها دورها الرائد في تأدية المعنى الذي يرمي إليه الشاعر في تلك المطولة، وأنه اتكأ عليها كواحدة من أهم الأدوات التعبيرية الموصلة إلى معانيه.

٣- اتضح جليا من خلال البحث أن الكناية عن صفة كثر مجيؤها في الصيغ المركبة فكثيرا، ما جاءت صياغتها في بيت أو بيتين، بينما كانت الكناية المفردة أقل ورودا، وهذا يتفق مع طبيعة المعنى الكنائي عن صفة، والذي يكون – غالبا – مستورا وراء التركيب كله.

٤- جاءت الكناية عن موصوف في أغلب مواطنها كناية عن أشخاص، وهذا يتناسب مع كثرة الشخصيات التي عرض حافظ موقف الفاروق منها في تلك العمرية، وذلك مثل قوله : (مولى المغيرة) كناية عن (أبي لؤلؤة) غلام (المغيرة بن شعبة)، وقوله : (سل قاهر الفرس والرومان) كناية عن الصحابي الجليل (خالد بن الوليد)، وقوله : (لسيد مخزوم وفارسها) كناية عنه – أيضاً –، وقوله : (يقوده حبشي) كناية عن (بلال بن رباح)، وقوله : (وبنت المصطفى فيها) كناية عن فاطمة (رضى الله عنها)، وقوله: (فارس عدنان وحاميها) كناية عن (علي)، وقوله : (داهية السواس) كناية عن (عمرو بن العاص) وغير ذلك من الكنايات الدالة على أشخاص.

٥- جاءت الكناية عن موصوف مقصوداً بها النبي (ﷺ) في خمسة مواضع : وذلك في قوله : (سيد الكونين)، و (المختار)، و (مهبط وحي الله)، و(هاديها)، و (خضرة الهادي) وجاءت جميعها في غاية التناغم مع سياقها.

٦- كما جاءت الكناية عن عمر (رضي الله عنه) في سبعة مواضع، وذلك في قوله : (مات آسيها)، وقوله : (أعظِم بملقيها)، وقوله : (عمِيدُ بنى الشورى)، وقوله: (يا رافعا راية الشورى وحارسها)، وقوله : (الفاروق)، و(أمير المؤمنين) و (أبي حفص) والكنايات الثلاث الأخيرة اشتُهِر بها، حتى صارت في حكم الحقيقة اللغوية.

٧- جاءت معظم الكنايات في القصيدة قريبة واضحة لا تتطلب عناء في استخراجها وكد ذهن في الوصول إليها، وبعيدة عن التعقيد والتكلف.

٨- جاء المعنى الحقيقي في كثير من كنايات تلك العمرية مقصودا بجانب المعنى الكنائي، وهذا مما زاد من ثراء المعنى الكنائي لما يتطلبه من الإلمام بكل الدلالات التي يحتملها الأسلوب.

٩- كما جاءت خصوصيات النظم في كثير من كناياتها معبرة ومؤكدة لما يرمي إليه الشاعر من وراء المعنى الكنائي، وكان لذلك أثره الواضح في استقرار المعنى الكنائي في القلب ورسوخه في الذهن، وهذا مما يدل على قدرة شاعرنا على توظيف عناصر القول توظيفا فنيا كاشفا عن معناه الكنائي.

١٠- اتضح من خلال البحث تعانق المجاز اللغوي – وخاصة الاستعارة - مع الكثير من كنايات تلك العمرية في تصوير المعنى الذي يرمي إليه الشاعر، مما ضاعف من جمال الصورة الكنائية، كما كان له أثره في وضوح المعنى الكنائي من جوانب عدة.

١١- كما امتزجت الصورة الكنائية مع بعض الفنون البديعية وخاصة أسلوب المقابلة والطباق، وكان لهما أثرهما الواضح في إظهار المعنى الكنائي واضحا قويا مترابطا، كما كان لهما أثر بيِّن في إحداث نمط من التوازن والتناسب في نظم الصورة الكنائية، فضلاً عما أحدثاه من أثر صوتي له أثره وقيمته، ضاعف من جمالها وبهائها.

١٢- جاءت أغلب كنايات العمرية في غاية التناغم والتناسق مع السياق والمعاني التي يريد الشاعر إثباتها من وراء التركيب الكنائي.

١٣-استغرقت صياغة بعض كنايات تلك العمرية بيتا أو بيتين، وذلك قصدا من الشاعر إلى استقصاء أوصاف المشهد الذي يريد إبرازه والإحاطة بالمعنى الكنائي من جميع جوانبه.

١٤- اتضح من خلال البحث قدرة شاعرنا – أحيانا – على دمج عدة كنايات وتتابعها في التركيب الواحد، وكان لذلك أثره في النهوض بأعباء المعنى الذي يقصده على أكمل وجه.

والله – تعالى – أعلم

المصادر والمراجع

(١) ?لإتيا? ??لمجي? – فقه ?لالتهما ??ستعمالهما في ?لقر?? ?لكريم، ? / محمو? موسى حمد??، مكتبة ?هبة، ??لى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ ?.

(٢) ?لأ?? ?لعربي ?لمعاصر في مصر، ? / شوقي ضيف، ?لطبعة ?لأ?لى، ???لمعا? ?.

(٣) ???? ? ?لتشبيه ??لالاتها ??ستعمالاتها في ?لقر?? ?لكريم، ?/محمد موسى حمد??، مطبعة ?لأمانة، ?لطبعة ?لأ?لى – ١٩٩٢ ?.

(٤) ?سد ?لغابة فى معرفة ?لصحابة لأبى ?لحسن ?بن ?لأثير، ?/ على محمد معو ? ?عا??حمد عبد ?لموجو? – ??? ?لكتب ?لعلمية – ?١ – ١٤١٥هـ - ١٩٩٤?.

(٥) ?فنا??لبيا?، ? /?لشحا??بو ستيت، مطبعة ?لتركي، طنطا، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ ?.

(٦) ?لاكتفا? بما تضمنه من مغا?? ?سو? ?لله (ﷺ) ??لثلاثة ?لخلفا?، لـ سليما? بن موسى ?لحمير?، ???لكتب ?لعلمية – بير? ?،?لطبعة ?لأ?لى، ١٤٢٠هـ.

(٧) ?لإيضا? في علو??لبلاغة للخطيب ?لقز?يني، شر? ?تعليق / محمد عبد?لمنعم خفاجي، ? ٣، ???لجيل، بير? ? – بد??.

(٨) بحو? بلاغية في علم?لبديع، ? / صبا? عبيد ????، ? ? عبد ?لر?? ?يا?، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ ?.

(٩) ?لبد?ية ??لنهاية، لابن كثير، ??? ?لفكر، ?لطبعة ?لأ?لى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ ?.

(١٠) بديع ?لقر?? لابن ?بي ?لأصبع ?لمصر?، تحقيق : ? / حفني شر ?، نهضة مصر، بد??.

(١١) بغية ?لإيضا?، ?لشيخ / عبد ?لمتعا? ?لصعيد?، مكتبة ?لآ?? ?.

(١٢) تا?يخ ?لطبر?، لمحمد بن جرير?لطبر?، ???لتر? ? – بير? ?، ?لطبعة:?لثانية - ١٣٨٧ هـ.

(١٣) ?لتصوير?لبياني (???سة تحليلية لمسائل?لبيا?)، ? / محمد ?بو موسى، مكتبة ?هبة، ? ٤، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ ?.

(١٤) تهذيب سير??بن هشا?، عبد?لسلا? ها???، ?لمؤسسة ?لعربية ?لحديثة للطبع ??لنشر ??لتو?يع.

(١٥) ?لجني ?لد?ني في حو? ?لمعاني للمر???، تحقيق : ? / فخر ?لدين قبا??، ?? / محمد نديم فاضل، منشو?? ? : محمد على بيضو?، ??لى، ???لكتب ?لعلمية – بير? ? – لبنا? – ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ ?

(١٦) جو?هر ?لبلاغة للسيد /?حمد ?لهاشمي، ???لفكر للطباعة ??لنشر ??لتو?يع، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ ?.

(١٧) حاشية ?لدسوقي (ضمن شر?? ?لتلخيص)، ??? ?لـ كـ تب ?لعلمية – بير? ?، لبنا?.

(١٨) حيا? ?لصحابة، لـ محمد يوسف ?لـ كـ اندهلو?، حققه، ?ضبط نصه، ?علق عليه :?لـ د كـ تو? / بشا? عو?? معر? ?، مؤسسة ?لرسالة للطباعة ??لنشر ??لتو?يع، بير?? – لبنا?، ?لطبعة ?لأ?لى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ ?.

(١٩) ???سا? منهجية في علم?لبديع، ? /?لشحا? محمد?بو ستيت، ???لى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ ?.

(٢٠) ?لائل?لإعجا? للإما? عبد?لقاهر?لجرجاني، قر?? ?علق عليه : محمو? محمد شا كـ ر، ?لهيئة ?لمصرية ?لعامة للـ كـ تا?، م كـ تبة?لأسر? ٢٠٠٠ ?.

(٢١) ?يو?? حافظ ?بر?هيم، ضبطه ?صححه ??تبه :?حمد ?مين، ??حمد?لزين، ??بر?هيم?لأبيا??، ? ٣،?لهيئة?لمصرية?لعامة للـ كـ تا? ١٩٨٧ ?.

(٢٢) ?يو?? عبد ?لحليم ?لمصر?، طبع مطابع ??? ليوسف، ?لهيئة ?لعامة لقصو??لثقافة.

(٢٣) ?لرحيق ?لمختو? للشيخ / صفي?لرحمن ?لمبا? كـ فو??، ? ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ ?.

(٢٤) سنن ?لترمز? تحقيق : بشا? عو?? معر? ?، ???لغر??لإسلامى بير?? – ١٩٩٨.

(٢٥) شعر?? مصر ?بيئاتهم في ?لجيل ?لماضي، بقلم : عبا ? محمو? ?لعقا?، ? ٣ – م ك تبة ?لنهضة ?لمصرية – ١٩٦٥ ?.

(٢٦) شعر?? ?لوطنية في مصر، لعبد ?لرحمن ?لر?فعي، ? ٣ – ?? ?لمعا? ?.

(٢٧) ?لشوقيا ? لأمير ?لشعر?? : ?حمد شوقي– ?لم ك تبة ?لتجا?ية ?ل ك بر ? – ١٩٧٠ ?.

(٢٨) صحيح مسلم بشر ? ?لنو??، ?لإما ? ?لنو??، ? ? / صلا ? عويضة، ?? / محمد شحاتة، ???لمنا? - ??لى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣?.

(٢٩) ?لصو??لفنية في شعر ?عبل، ? / على?بو?يد، ???لمعا? ?، ? ٢، ١٩٨٣ ?.

(٣٠) ?لطبقا ? ?ل ك بر?، لمحمد بن سعد بن منيع ?بو عبد? لله ?لبصر??لزهر?، تحقيق : محمد عبد ?لقا?? عطا، ???ل ك تب ?لعلمية – بير? ?،?لطبعة ?لأ?لى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ ?.

(٣١) ?لطر???لمتضمن لأسر???لبلاغة ?علو? حقائق ?لإعجا? للعلو ? – ??? ?ل ك تب ?لعلمية – بير? ? – لبنا? – ??لى - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ ?.

(٣٢) علم ?لمعاني، ? / صبا ? عبيد ???– مطبعة ?لتر ك ي بطنطا – ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ ?.

(٣٣) فتو??لبلد??، لـ?حمد بن يحيى بن جابر بن ????لبلا???، ??? ?مكتبة?لهلا?- بير??، ١٩٨٨ ?.

(٣٤) فتو??لشا?، للو?قد?، ???لكتب?لعلمية، ?لطبعة: ?لأ?لى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧?.

(٣٥) ?لقو??لبديع في علم?لبديع للشيخ?لإما? / مرعي بن يوسف ?لكرمي?لمقدسي?لحنبلي – ???سة ?تحقيق، ? / عو ? بن معيو ? بن??يد?لجميعي – ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ ?.

(٣٦) ?لكامل في ?لتا?يخ، لابن?لأثير، تحقيق: عمر عبد ?لسلا? تدمر?، ???لكتا??لعربي، بير?? – لبنا?، ?لطبعة: ?لأ?لى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧?.

(٣٧) ?لكشا ? عن حقائق?لتنزيل ?عيو??لأقا?يل في ?جو??لتأ?يل، جا?? لله ?بي?لقاسم?لزمخشر?، مكتبة مصر.

(٣٨) ?للبا ? في تصريف?لأفعا?، ? / محمد عبد?لخالق عضيمة، ? ????لحديث.

(٣٩) لسا? ?لعر ? لابن منظو?، ??? ?حيا? ?لتر? ? ?لعربي، مؤسسة ?لتا?يخ?لعربي، بير??، لبنا?، ? ٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ ?.

(٤٠) مباحث في طر? علم ?لبيا?، ? ? / ?فعت?سماعيل ?لسو??ني، ٢٠٠١ ? – ٢٠٠٢ ?.

(٤١) ?لمثل ?لسائر في ?? ? ?لكاتب ??لشاعر لابن?لأثير، تصحيح ?تنقيح : محمد?لصبا?، ?لطبعة?لعاشر?، ?لقاهر?، ١٢٨٢ هـ.

(٤٢) ?لمحن، لمحمد بن?حمد بن تميم ?لتميمي ?لمغربي ?لإفريقي، تحقيق : ?/عمر سليما? ?لعقيلي، ??? ?لعلو? - ?لريا ? – ?لسعو?ية، ?لطبعة ?لأ?لى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤?.

(٤٣) ?لمعجم ?لوسيط، مجمع ?للغة ?لعربية بالقاهر? - ???لدعو? - ?٣ - ١٩٨٥?.

(٤٤) مفتا ??لعلو? للسكاكي، طبعة مصطفى ?لبابي ?لحلبي، ??لمطبعة ?لميمنة، ضبط ?شر ? : ? / نعيم ????، ??? ?لكتب ?لعلمية، بير? ?، ???لى، ١٩٨٣ ?.

(٤٥) ?لمفر?? ? في غريب ?لقر??، للر?غب ?لأصفهاني، ??جعه ?قد ? له : ??ئل ?حمد عبد ?لرحمن –?لمكتبة ?لتوفيقية – بد??.

(٤٦) ?لمفصل في تا?يخ ?لعر ? قبل ?لإسلا ? للدكتو? جو?? علي، ??? ?لساقي، ?لطبعة ?لر?بعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١?.

(٤٧) مفهو? ?لمعنى ?لكنائي في فكر ?لإما? عبد ?لقاهر ?لجرجاني، ? / علي سعد على سعد، بحث منشو? في حولية كلية ?لد??سا ? ?لإسلامية ??لعربية بنين، بدسو?، ?لعد? ?لثالث، ٢٠٠٠ ?.

(٤٨) ?لمنتظم في تا?يخ ?لأمم ??لملو ?، لـ جما? ?لدين ?بو ?لفر ? ?لجو??، تحقيق: محمد عبد ?لقا?? عطا، مصطفى عبد ?لقا?? عطا، ??? ?لكتب ?لعلمية، بير? ?، ?لطبعة: ?لأ?لى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ ?.

(٤٩) نقد ?لشعر لقد?مة بن جعفر– تحقيق : ? / محمد عبد ?لمنعم خفاجي، م كتبة ?لكليا ??لأ?هرية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ ?.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة	١٤١
التمهيد	١٤٤
أولاً : حافظ إبراهيم في سطور	١٤٤
ثانياً : الكناية مفهومها وبلاغتها	١٤٧
نص القصيدة.....	١٥٠
❖ الكناية في تصوير حالة الشاعر حين أقدم على نظم عمريته	١٥٨
❖ الكناية في تصويره لأثر مقتل الفاروق (ﷺ) على الأمة	١٦٣
❖ الكناية في تصويره لما آل إليه حال الدولة الإسلامية بعد مقتل الفاروق (ﷺ)	١٧٠
❖ الكناية في تصوير إسلامه (ﷺ)	١٧٧
❖ الكناية في تصويره مبايعة الفاروق لأبي بكر بالخلافة	١٨٣
❖ الكناية في تصوير موقفه (ﷺ) حين لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى	١٨٥
❖ الكناية في تصوير دور الفاروق الرائد يوم السقيفة	١٩٢
❖ الكناية في تصوير موقف الفاروق من علي بن أبي طالب عندما امتنع عن مبايعة أبي بكر بالخلافة يوم السقيفة	١٩٦
❖ الكناية في تصوير موقفه من جبلة بن الأيهم	٢٠٠
❖ الكناية في تصوير موقفه من أبي سفيان حين حبس لنفسه شيئا من مال المسلمين	٢٠٤
❖ الكناية في تصوير موقف الفاروق من خالد بن الوليد	٢٠٨
أولاً : الإشادة باستبسال خالد بن الوليد في ميدان	٢٠٨

المعركة	
ثانيا: تلقيه خبر عزله من قيادة الجيش	٢١٤
ثالثا: الكناية في تصوير عتاب الصحابة للفاروق في عزله لسيف الله المسلول، وبيان حجته في ذلك	٢٢١
❖ الكناية في تصوير موقفه من الصحابي الجليل (عمرو بن العاص)	٢٢٦
❖ الكناية في تصوير موقفه من ولده (عبد الله)	٢٣٠
❖ الكناية في تصوير تأثر رسول (كسرى) بحال (الفاروق) حين رآه بين رعيته	٢٣٤
❖ الكناية في مقام ترسيخ الأخذ بمبدأ الشورى عند الفاروق	٢٣٩
❖ الكناية في تصوير زهده (ﷺ)	٢٤٣
❖ الكناية في تصوير مشهد من مشاهد رحمته	٢٤٧
❖ الكناية في تصوير ورعه وتقشفه(ﷺ)	٢٥٠
❖ الكناية في تصويره هيبته (ﷺ)	٢٥٤
❖ الكناية في تصويره رجوعه(ﷺ) إلى الحق	٢٥٩
❖ الكناية في تصويره موقفه من شجرة الرضوان	٢٦٤
الخاتمـــة	٢٦٧
المصادر والمراجع.....	٢٧٠
فهـــرس الموضوعات.....	٢٧٥